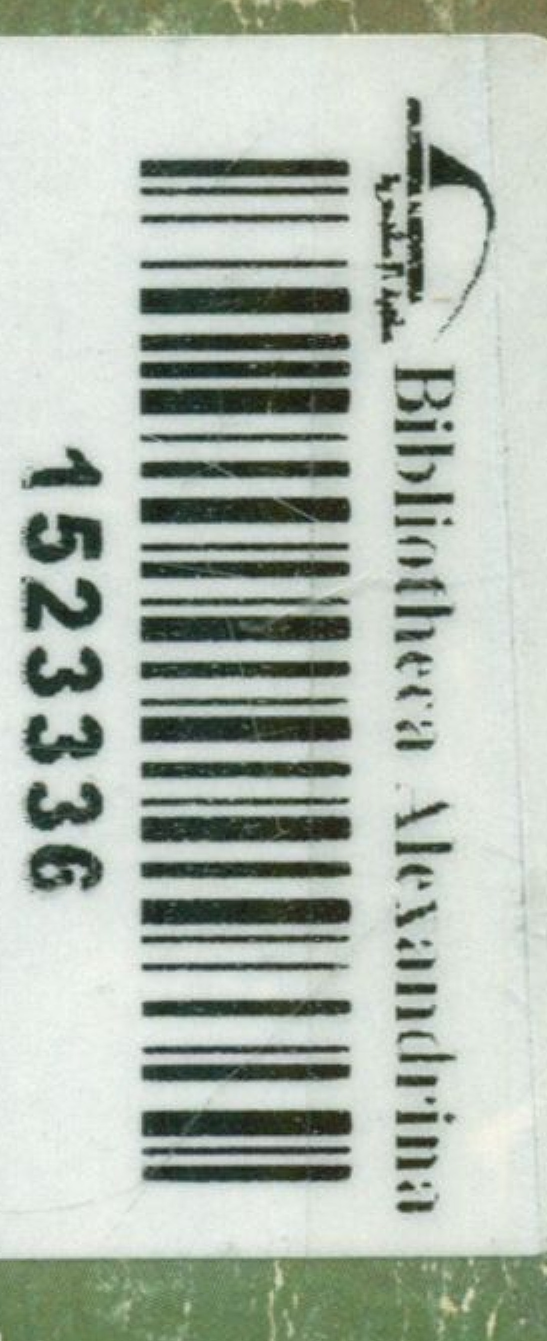
عظماؤنا في التاريخ

الدكتور مصطفى السباعي



إهداء ٢٠١٦

هيئه الرقابه الاداريه

جمهورية مصر العربية

عظمــاؤنا فــي التــاريــخ

الدكتور مصطفى السباعي
(رحمه الله)

دار اليقين

دار اليقين للنشر والتوزيع

المنصورة - ش عبد السلام عارف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــــــديم

بِقَلم الأستَاذ الدُكتُور

عدنـان زرزور

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

ـ ١ ـ

« عظماؤنا في التاريخ » البعيد بقلم عظيم من عظمائنا في التاريخ القريب ، والمشكاة واحدة هي مشكاة هذا الدين الخالد ، والريادة واحدة هي ريادة هذا النبي الكريم . فهل أضيف هنا فصلًا في سيرة كاتب هذه الفصول أستاذنا الداعية الشيخ مصطفي السباعي رحمه الله ، ومثلي آخر من يقدر علي ذلك أو يطمح إليه ! إن ذلك من حق الرعيل الأول الذي صحب الأستاذ الرائد وأصغي إليه ، ولبي نداءه وتتلمذ عليه ... بل إن ذلك من حق الأجيال التالية واللاحقة علي هذا الرعيل ... ومن حق التاريخ نفسه الذي وفي له أستاذنا ـ رحمه الله ـ مرتين ، مرة يوم كتب عن عظمائه ، ومرة أخري يوم تلفتنا حولنا فعلمنا أنه رحمه الله قد ارتقي إلي صف هؤلاء العظماء بهمة الداعية ، وبصيرة المؤمن ، وحماسة المجاهد ، وسماحة القائد ... وصبر الصابر علي قضاء الله وقدره . رحمه الله وأعلي مقامه في عليين .

« الفصل » الكتاب ، أو الكتاب السفر الكبير الذي لم يكتب بعد في حياة

الأستاذ السباعي وأثره ومآثره ربما كتبه واحد أو أكثر من أبناء ذلك الرعيل ... وبحسبي هنا خواطر بعيدة وكلمات تأتي علي استحياء ...

- ٢ -

مات منذ اثني عشر عاماً - في أوائل فصل الخريف - التي تحمل للنفس الإنسانية في كل عام إحساساً مبهماً بالتأمل البعيد ، والأمل الغامض ، والإطلالة الخرساء علي الشتاء القريب ... والتي تثير في هذه النفس أعمق الآلام والآمال ، والصور والذكريات ... الذكريات الجميلة والقاسية في آن واحد !

والخريف شهر الإنسان لأنه فصل الولادة والاحتضار ... وما حياة الإنسان إلا أرقام معدودة يبدأ فيها « العد التنازلي » ساعة الولادة وينتهي ساعة الاحتضار ! لذا فقد ورد في الأثر (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ...) . ولقد كانت حياة أستاذنا رحمه الله تحمل طابع الموت والشهادة ، فأيقظ الناس بحياته وانتبهت حياته بموتها ، وحملت إلي بارئها راضية مرضية علي جناحين من أجنحة الخريف : جناح من ألم المرض العضال الذي استبد به سبع سنوات عجاف ، وجناح من أمل بأن ما عند الله خير وأبقي ...

- ٣ -

كانت أخلاقه أخلاق الفاتحين ، وسيرته سيرة الفاتحين ... وكبواته كبوات الفرسان والفاتحين ... الفرسان يتقدمون الصفوف ولا يقفون لمراجعة الحساب ! همهم الأول كسب أرض جديدة ، والوصول بالفكرة إلي أقصي ما تستطيعه عزيمة قائد ، وهمة داعية ، وجواد فارس ... عيونهم علي الآفاق البعيدة لا علي مواضع الأقدام ! رحم الله عقبة بن نافع الذي خاض بفرسه في بحر الظلمات .. وأطلق كلمته المشهورة التي أودعها بقية حماسة في نفسه تكفي لجهاد لا ينقطع .. وحملتها الأمواج

إلي آماد وأبعاد ... ثم عاد ـ رحمه الله ـ ليجد الموت والشهادة في طريق العودة ! سقط عقبة شهيداً .. سواء أخطأ في عدم حذره أم أصاب ـ لأن حذر المؤرخين هنا إنما هو حذر الذي يرسم علي الورق ، ويحتاط في زوايا الإهمال والنسيان ـ ولكن صوت الإسلام لم ينحسر عن الأرض التي فتحها وهو علي صهوة جواده .. ثم سقط فيها شهيداً عن ظهر ذلك الجواد ! .

إن التبليغ غاية ، والتمكين في حدود الطاقة البشرية وسيلة .. والفاتحون يتجهون بهمتهم إلي الغايات ، ويتركون لمن حولهم ومعهم الوسائل . وكذلك كانت سيرة الداعية الفاتح السابق أبي حسان رحمه الله ، وجزاه عن دينه وعباده أحسن الجزاء .

ـ ٤ ـ

في مقابلة صحفية ـ متأخرة بعض الشيء ـ سأله المحرر عن حكمته المفضلة ؟ فأجاب رحمه الله بأنها الحكمة التي تقول : « الحياة طويلة بجلائل الأعمال ، قصيرة بسفاسفها » فأكبرت يومها هذا الاختيار ، لما يدل عليه من علو الهمة ، وقوة الروح ، وفهم عميق لحساب السنين في عمر الإنسان . ثم علمت أن هذه الحكمة التي قرأها الناس لأول مرة ليست إلا واحدة من حكمه الغوالي التي خرج بها في عمره المديد بجلائل الأعمال ، القصير بحساب السنين والأيام ... والتي كان في وسع أحدنا أن يقرأ حياة السباعي في ضوئها ، قبل أن يقرأها له في صحيفة أو كتاب !

والدرس العميق الذي نخرج به من هذه الملاحظة هو أن الحكم التي ضمنها كتابه القيم « هكذا علمتني الحياة » حكم عملية واقعية عاشها الشيخ رحمه الله ، بكل جوارحه وأحاسيسه وآلامه وآماله . اهتدي بنورها مرة ، واكتوي بنارها مرة ... وعاش في دخانها وظلالها مرات ومرات ... بحيث يمكننا القول : إن هذا الكتاب يمثل عصارة الفكر والروح في كل حكمة من حكمه وكلمة من كلماته ... وحرف من حروفه ، لأنك

تقرأ تحت ذلك كله تاريخاً حافلًا - أخذ طريقه إلي دنيا الواقع - من العمل الدائب ، والعاطفة المشبوبة ، والشجاعة المفرطة ، والرجولة المستعلية ، والتجربة الصادقة ... والصبر الجميل .

وعلي الذي يريد أن يكتب شيئاً عن السباعي رحمه الله أن يقف طويلًا عند هذا الكتاب ، ليستعين به علي رسم الملامح العامة لهذه الشخصية الفذة في تاريخ عظماؤنا القريب .

- ٥ -

اقرأ معي للدلالة علي هذه الملامح ، أو لتحسها بارزة مجسمة ناطقة قوله : « يقولون لي : أرح نفسك لتشفي ، ومعني ذلك : أدفن نفسك لتسلم !! » وقوله : « قد تكون شدة الإحساس بلاء أكبر من شدة الغفلة » ، وقوله : « ليست الشجاعة أن تقول الحق وأنت آمن ، بل الشجاعة أن تقول الحق وأنت تستثقل رأسك ! » وقوله - في هذا الباب - « ليست البطولة أن تقاتل وأنت آمن علي ظهرك من الرماح ، ولكن البطولة أن تقاتل وأنت تتوشك الرماح من كل جانب » .

واقرأ للإشارة إلي طرف من صفاته النفسية والخلقية هذه الشذرات :

« كيف يمكن أن نصطحب في الطريق إذا كنت أطير براقاً ، وتسير سلحفاة ، فإما أن أسبقك ، وإما أن تؤخرني . وكيف يمكن أن نعيش معاً ، وحرارتي كالنار وبرودتك كالثلج ، فأما أن أحرقك ، وأما أن تجمدني ! » .

« من المستحيل تبديل الطبائع كما يستحيل تبديل الأشكال ، ومن يخلقه الله كما أراد لا يبدله الإنسان كما يريد » .

مشكلات الطائر وهو يحلق في السماء لا يفهمها إلا طائر مثله » .

« لولا جرأة المصلحين واستهزاؤهم بهزء الساخرين ، لما تخلص المجتمع من قيوده وأوزاره » .

« أقبح أنواع الجبن : الخوف من الجهر بالحق خشية من ألسنة المبطلين » .

« لا تتأخر عن كلمة الحق بحجة أنها لا تسمع ، فما من بذرة طيبة إلا ولها أرض خصبة »

« ليس عليك أن يقتنع الناس برأيك الحق ، ولكن عليك أن تقول للناس ما تعتقد أنه حق » .

« من عرف الحق لذت عنده التضحيات » .

« قيمة الإنسان بأهدافه ، ومنزلته بأقرانه ، وذوقه باختياره ، وثروته بما يملك من قلوب ، وقوته بما يحطم من هوى ، وانتصاره بما يهزم من رذيلة . وكثرته بمن يثبت معه عند الشدائد » .

«الارتفاع فوق مطامع الدنيا يحتاج إلي جناحي نسر ، لا إلي جناحي فراشة » .

« الآلام طريق الخلود لكبار العزائم ، وطريق الخمول لصغارها » .

« رأيت نفسي تسمو بالآلام .. ولكن من يطيق استمرارها » ؟

« قال الثعلب للأسد بعد أن أوقعه في حفرة ظن أنه سيهلكه فيها : سأفضحك بين الحيوان بضعفك ، فضحك الأسد وقال : مهما فعلت فسأظل أنا أسداً ، وستظل أنت ثعلباً » !

« عامل ربك بالخضوع ، وعامل أعداءه بالكبرياء ، وعامل عباده بالتواضع » .

- ٦ -

وهذه شذرات أخري في أبعاد تحمله لأعباء الدعوة ، وصبره علي ما كان يلقاه من جحود الجاحدين ، وإنكار المنكرين ، ووعثاء الطريق ، وتخلف الركب ، وما انتهي إليه رحمه الله في أمر الدعوة والإصلاح ، والقادة والجنود ، نذكرها هنا بين يدي هذه الفصول التي لم تكتب إلا من

واقع الدعوة والتربية والجهاد ، ومن خلال الحركة الدائبة المتصلة لإعداد الجنود وتذكير القادة ... وحمل الجميع علي التأسي بسيرة هؤلاء العظماء الذين لم يشهد لهم تاريخ الإنسانية مثيلًا من قبل . إن هذه الفصول لم يحمل عليها تحقيق المؤرخ أو بحث المنقب وتحقيق العالم ، ولكن حمل عليها صدق الرائد ، وحس الداعية . ولعل هذه النقطة هي مفتاح فهم هذه الفصول والإفادة منها ـ كما سنذكر بعد قليل ـ يقول رحمه الله :

« جنود الدعوة الأوائل تلقوها من مصدر قوتها وعذب معينها ، لا جرم أن كانت قوة الدفع أشد ما تكون إنطلاقاً ، وعذوبة المشرب أصفي ما تكون نقاء . أما جنود الدعوة الأواخر فقد تلقوها من قوة تشوبها ضعف ، ومعين ممزوج بكدورة ، لا جرم أن كانت قوة الدفع أضعف ، وصفاء المعين أقل » .

« جنود الدعوة الأوائل كانوا يقلون الجدل ويكثرون من العمل ، وكانوا يبخلون بالأقوال ويجودون بالأموال ، وكان عزمهم علي الجهاد مستعلناً وإخلاصهم فيه مستخفياً . وجنود الدعوة الأواخر يكثرون من الجدل ويقلون من العمل ، ويجودون بالأقوال ويبخلون بالأموال ، وإعلانهم للدعوة مجلجل وهم في الجهاد من أجلها علي وجل ، لا جرم أن اختلف الأثران مع التقاء الطريق ، وتباين المنهجان مع وحدة الهدف « والمؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » .

« إذا مشيت في طريق معبدة ، فاذكر فضل الذين تعبوا قبلك في تعبيدها قبل أن تفاخر بسبقك من سار معك فيها ، فلولا أولئك ما سبقت هؤلاء » .

« ما يلقاه الرجل من حسد أقرانه أشد مما يلقاه من كيد أعدائه » .

« الشجرة المثمرة تهفو إليها النفوس ، وتتطلع إليها الأنظار ، وتتساقط عليها الأحجار » .

« خير من ينشر فضائلك حسادك الوقحون ، وشر من يكشف عيوبك

محبوك المغفلون » .

« من مكر الشيطان ببعض جنود الدعوة أن يهيجهم لإنكار منكر هو عند الله صغير ، أو أمر يرونه منكراً وهو عند صاحبه طاعة فيقعون في كبائر محققة يتلو بعضها بعضاً من الغرور ، والبهتان ، واحتقار المسلم ، وتجاوز حدود الله ، وتفريق كلمة الجماعة ، والغيبة ، والكذب . وهم يتأولون ذلك كله بأنه حمية ودفاع عن دعوته ، لطالما يقهقه الشيطان من حماقاتهم » .

« بعض الناس يستغلون الدعوة إلي الله لأمراض في قلوبهم ، ويتظاهرون بالحماسة لها والله أعلم بما في نفوسهم ، ليت شعري أيعلمون أنهم بذلك يشككون الناس في إخلاص كل داعية إلي الله ؟ .. أم أن الشيطان الذي اشتري ضمائرهم جعلهم لا يبالون بنتائج ما يفعلون ! » .

« لا تنجح الدعوات إلا حين يكون لها من القادة المتعاونين الأكفاء ما يكون علي قدر الحاجة إليهم ، والظروف المحيطة بهم » .

« الذين تجمعهم دعوة الدين وتفرقهم منفعة الدنيا أناس لم يخالط الدين شغاف قلوبهم والذين تجمعهم كلمة الحق وتفرقهم دسائس الباطل أناس لم يعرفوا الحق كما ينبغي أن يعرف . والذين تجمعهم باحة المسجد وتفرقهم ساحة السوق قوم لا ينصرون الله أبداً » .

« لا ترج خيراً ممن أدار لك ظهره عند إقبال الدنيا عليه ، ولولاك لما صافحته الدنيا » .

« الذي لا وفاء عنده لإخوانه عند نزول المحن بهم لا وفاء عنده لأمته عندما تحتاج إليه » .

« لو عمل العاملون انتظاراً للجزاء في الدنيا لماتوا هماً وكمداً » .

« أقل الناس قياماً بحق الأخوة أكثرهم ادعاء لها ، أولئك هم المتاجرون » .

ولا يتسع المجال هنا للمزيد من النقول والشواهد ، وإن كانت الحيرة في الاقتباس من هذا الكتاب الغني شديدة ومربكة ، لأنه حصيلة عميقة متشابكة تشمل ساحة النفس الإنسانية بكل أغوارها وساحة المجتمع الإنساني بكل أبعادها ... ومحاولة الوقوف علي ملامح صاحبه ـ رحمه الله ـ من خلاله تحتاج إلي وقت ليس بالقصير . وبحسبنا هذه الشذرات ، مع التنويه بما تضمنه هذا السفر من أسس الإصلاح علي نطاق الأسرة والمجتمع ، وما يدل عليه من أخلاق المعوقين وأصحاب الأهواء من علماء السوء وغيرهم .

ولكن إذا أردنا أن نلتمس عنواناً لحياة السباعي الخصبة العميقة فإننا نجده في كلمة واحدة هي : « الجهاد ».وهذا معني القول بأن حياته كانت تحمل طابع الموت والشهادة ، رحمه الله وأعلي مقامه .

كانت حياته جهاداً متواصلًا في مقدمة الصفوف وفي جميع الميادين ... ميدان الجهاد بالنفس ، وميدان الجهاد بالمال ، وميدان الجهاد باللسان ، وميدان الجهاد بالقلم . لم يدع الجهاد في الموقف الذي يستطيعه والوجه الذي يقدر عليه ، منذ اليوم الأول من حياة الفتيان ، إلى آخر يوم من حياة الفرسان ... توفي رحمه الله والمداد الذي كان يدافع به عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجف بعد ! ليست هذه صورة العالم فحسب ،.ولكنها قبل ذلك صورة المجاهد المحارب الذي يذود عن دينه بما يستطيع ، لأنه كان علي حالة من المرض والألم بحيث لو عاف منها القلم والكتاب واللسان كذلك لما لامه أحد .. بل كان محبوه وعارفوه من حوله يشيرون عليه بذلك رحمة به وإشفاقاً عليه !! ولكنها طبيعة المجاهد الذي لا يلقي سلاحه حتي اللحظة الأخيرة ... ورسالة الداعية الذي يخشي أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر دعوته أو ينتصر لها ولو بكلمة يخطها أو قول يقوله . ولطالما رأيته ـ رحمه الله ـ يمسك بيمينه

القلم ويرتجف تحت يساره القرطاس ، يستجيب من قمة آلامه لما تمليه عليه القريحة النافذة ، والروح العميقة ... والعقل القوي ، غير عابئ بما يقرؤه جليسه علي وجهه من آثار الآلام العصبية الحادة .. وكأنها إنما ترسم علي وجه آخر غير وجهه ، وتحط علي جسم آخر غير جسمه ... كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها ، أما هو - شهد الله - فلم يكن يجأر بالشكوي إلا بمقدار ما يعلمنا الصبر علي قضاء الله ، والخضوع لحكمته ، والصبر علي بلائه ... فكنت أقول في نفسي : ما أروع هذه القضية التي يعيش لها هذا المجاهد الصابر المحتسب .. وما أصدقه من داعية باع لله ما يملك .. ثم اشتري الله منه ما شاء حين شاء ، إن الله يفعل ما يريد : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

- ٨ -

والمجاهد صاحب أنبل قضية واسمي هدف ، لأن قضيته تتصل بمعاني الحياة لا بأشيائها ... لا جرم أن كان هو الذي يدرك المعني الحقيقي للحياة . والمجاهد أعمق الناس إيماناً ، وأوضحهم رؤية ، وأروعهم نفاذاً ... لأنه ينظر من وراء عالم الشهادة إلي عالم الغيب ، ويتجاوز متاع العالم المنظور إلي وعود العالم المأمول ، الذي «يري» فيه الخلود .. وفيما بين يديه الزوال !

لا جرم أن كان المجاهدون هم القادرين علي إيقاظ معاني الحياة الخالدة في نفوس السادرين والنائمين .. أما الذين يعيشون لأشياء الحياة ومتاعها فهم أعجز من أن يوقظوا معني الحياة الحقيقي في نفوس الناس ، فيصلوها بالله واليوم الآخر ، لأن أرواحهم هم تعيش في ظلام المادة وكثافة الأشياء !! ... هؤلاء عند السباعي ليسوا في صف الدعاة ، فضلًا عن أن يكونوا في مقام المجاهدين ، يقول الشيخ رحمه الله : « من علامة كذب الداعية : غرامه بالترف والرفاهية ، وجوعه إلي الشهوة واللذة ، والتصاقه بالخائنين والمفسدين » ويقول : « الشهوة

عقبة تمنع المريدين من الوصول إليه ، وحجاب يحول دون الواصلين عن شدة القرب منه ، وظلمة تفر منها بصيرة العارفين ، وشبكة يعصم الله منها قلوب المقربين » .

لا عجب بعد ذلك أن تكون رسالة المسلم في الحياة هي الجهاد وتحقيق « كلمة » الله تعالي في الأرض ... ولا عجب كذلك أن يكون أستاذنا الرائد رحمه الله في طليعة المجاهدين ... فتستجيب له النفوس ، وتجتمع عليه القلوب ، ويعلو في الملأ الأعلي - إن شاء الله - شأنه ، ويخلد في العالمين ذكره .

والجهاد قبل هذا وذاك : جندية وطاعة ، وسبق وريادة ... ولهذا تستوي عند المجاهد الحقيقي الجندية والقيادة ، بل إن « خيارهم في الجندية خيارهم في القيادة ... وخيارهم في المرض خيارهم في الصحة » كما يقول الأستاذ السباعي نفسه ، الذي كان - علم الله - من هؤلاء جميعاً ، حيث كان علي رأس الصفوف يوم أخذ نفسه بهذه الجندية في الصحة والمرض ، والمنشط والمكره ، والعسر واليسر .. وفي جميع المواقف والأحوال ، حتي إنه أتي في بعض هذه المواقف من قبل هذه الجندية حيث كان يحمل - علي وجه القناعة لا الإلزام - في نهاية المطاف علي ما كان ينكره ، أو يأباه ، في بداية الطريق ! .

- ٩ -

الحديث عن صفاته الكثيرة - التي أشرنا إلي طرف منها في نقولنا السابقة - لا تتسع له هذه الصفحات ، وبحسبنا بعد الكلام علي عنوان حياته السابق ، وهو الجهاد ، أن نشير إلي صفته الغالبة التي يكمن فيها واحد من أسرار نجاح السباعي رحمه الله في تربية الأفراد وإعداد الرجال ، وهي « الإيثار ونكران الذات » . وإذا كانت هذه الصفة تستقي من نبع الإخلاص والثقة بما عند الله ، فإنها في واقع الحياة ألزم صفات الدعاة والرواد ، بل إن أستاذنا الداعية يعتبرها كذلك أجمل فضائل

الإنسان ، يقول رحمه الله في واحدة من حكمه الغوالي : « لا تيئس ، فاليأس كفر بنعمة الله ، ولا تغضب ، فالغضب قتل لفضائل النفس ، ولا تحقد ، فالحقد تشويه لجمال الحياة ، ولا تحزن ، فالحزن إتلاف لأعصاب الجسم والروح ... ولا تكن أنانياً فالإيثار أجمل فضائل الإنسان » .

وليس أدل علي تمكن هذه الصفة من نفسه . من انه لم يندم في حياته قط علي الرجال الذين صنعهم بتضحياته ولكرانه لذاته ، وإن تنكر له بعضهم وجحد فضله ، يقول رحمه الله : « لا تندم علي أن شجعت من توسمت فيهم الخير فصنعت منهم رجالًا ثم جحدوك وحاربوك ! فحسبك أنك قاومت في نفسك الأنانية ، وحاولت زرع الورد ، فما أنبتت التربة السبخة إلا شيحاً وقيصوماً ! » ...

كان اللواء في يده .. ولكنه حمله مغرما لا مغنماً .. ولو علم فيه الغنم لعافه مع ما عاف من المناصب والمغريات .. وحمله بمقدار ما أدي فيه أمر الله وواجب الدعوة إليه في ظروف حاكلة السواد .. تقحم في سبيله المعامع والقفار ، وتحمل للدفاع عنه النصب والتعب والعتب . لم يكن يعنيه أنه رافع هذا اللواء في مقدمة الركب .. ولكن الذي كان يعنيه ويقض مضجعه ويؤرقه ويخشي أن يفارق الدنيا قبل أن يراه ويطمئن إليه .. هو مستقبل هذا اللواء !! أين هم هؤلاء الذين رباهم بيده ، ومنحهم من علمه وروحه .. هل سيرتفع هذا اللواء في أيديهم عالياً مشرقاً عزيزاً كريماً إذا نفذ فيه هو قضاء الله وقدره ؟! لعل الكثيرين لا يزالون يذكرون - وقد اشتدت به الآلام المبرحة يوماً - صوته المؤثر العذب وهو يتذكر دعاء ردده في سالفات الأيام : « اللهم لا تمتني حتي أري لهذه الدعوة شباباً يحملون من بعدنا اللواء .. » وكيف أفاض في تلك المرة في الحديث عن هذا اللواء الذي رفعه للعالمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. وتلقاه من بعده الصحابة والتابعون ... حتي كتب الله له أن يتشرف بحمله مع جملة الدعاة والرواد .. يومها .. وبعد هذه الإفاضة أغمض من عينيه العميقتين في صمت بليغ أحس جليسه معه بأنه كان يستعرض بخياله

الوثاب جند الإسلام الذين تعهدهم بيده ليطمئن على مصير هذا اللواء فى أيديهم ... وكأنى به - رحمه الله - قد رأى جنده ماضين على دعوة الحق ، وأن لواء سيد المرسلين سيقع فى أيديهم عزيزاً مفدى لأنه رجع بعد هذا الصمت إلى القول : الحمد لله ! الحمد لله !

ولعل هذا الموقف يفسر حياة السباعى كلها رحمه الله لا خلقاً واحداً من أخلاقه الكريمة فحسب ... عاش لدعوة الإسلام في حياته ، ولم يكن يعنيه من دنياه إلا أن يطمئن علي هذه الدعوة قبل مماته !! رحمه الله وجزاه عن دينه أحسن الجزاء .

- ١٠ -

أما الكتاب فهو مجموعة مقالات متفرقة كتب بعضها تحت هذا العنوان « عظماؤنا في التاريخ » وكتب بعضها الآخر تحت عنوان « في مدرسة الروح » . وكان الأستاذ رحمه الله قد قدم لكل من هذين العنوانين أو البابين - وقد كانا في بعض الصحف السيارة - بكلمة موجزة ، فجعلناهما هنا كالمقدمة لهذا الكتاب ، الذي اشتمل كذلك علي بعض الفصول الأخري التي تم نشرها في مجلة « حضارة الإسلام » . وتحسن الإشارة هنا إلي أن الطبعة السابقة - غير الشرعية - لهذا الكتاب ، احتوت علي بعض « التراجم » الأخري التي كان الأستاذ رحمه الله قد نشر أكثرها في باب « رجل فقدناه » في مجلته السابقة ، ولكنه لم يقصد بذلك إلي اعتبارها جزءًا من عظمائنا في التاريخ ، البعيد أو القريب ... يظهر ذلك من أدني نظر في هذه التراجم ، ومن أدني معرفة بطبيعة الشيخ رحمه الله وطبيعة مقاييسه في هذا الباب وفي كل أبواب المعرفة والحياة !!

- ١١ -

نعود من هذه الإشارة إلي القول : إن هذه الفصول ليست في فلسفة التاريخ أو فلسفة عظمائه وصانعيه ! لا يظهر ذلك من مضامين هذه الفصول فحسب ، بل يظهر كذلك من مجرد العنوانين السابقين اللذين

اختارهما الأستاذ الداعية رحمه الله ! فالحديث أولًا عن حظنا من عظماء التاريخ لا عن حظ عظمائنا في صنعه ، والتاريخ تيار عام يخضع لسنن إلهية كونية لم تتعرض هذه الفصول لطرف منها ، أو لدور العظيم في بيانها وتجليتها والحديث ثانياً عن إعداد الجنود وتذكير القادة من خلال مدرسة الروح التي كتب فيها أولئك العظماء دروساً لا ينتهي الوقوف عندها ما بقي في الإنسانية عين تطرف !

وقد يتسع المجال هنا إلي بعض الإشارات السريعة في الجانب الثاني ، وهو دراسة الشخصيات الإسلامية وشروط هذه الدراسة لفهم الدروس المستفادة من مدرسة الروح . أما الجانب الأول ، وهو جانب فكرة التاريخ وفلسفته ومن كتب فيه وعلق عليه ... فلا يتسع المجال في ذلك إليٰ أكثر من إشارة سريعة وبخاصة حول جانب الصلة بين عظمائنا في التاريخ ودورنا في التاريخ . فإذا سلمنا بالمعادلة القائلة بأن عظماءنا في التاريخ يساوي دورنا فيه فإن أهمية هذه الفصول تظهر لنا من خلال الظروف والوقت الذي كتبت فيه ، حين كانت مدراسنا - ولعلها ما تزال - تدرس تاريخاً إسلامياً مشوهاً وتاريخاً أوروبياً مضخماً ، كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، أي أن الأستاذ السباعي رحمه الله أراد أن يرد الشباب المسلم إلي نفسه ، ويعطفه علي تاريخه ، ويقدم له من سيرة هؤلاء العظماء ما ينهض بهمته إلي العلياء ، ويخلصه من إرهاق الجزر النفسي الذي أوقعه فيه أولئك النقلة المترجمون الذين سقطوا في مناخ التبعية للمؤرخين الأوروبيين فيما « بيضوا » من تاريخهم وفيما « سودوا » أو شوهوا من تاريخ الإسلام والمسلمين !

والأوروبي ما يزال يري في نفسه « إنسان » العالم ، ومحور تاريخه وحضارته ، به تقاس الأمور ، ولا يقاس هو بأحد ! فإذا تحدث عن حضارة الغرب ظن أنه يتحدث عن الحضارة الإنسانية ، وربما سماها بذلك ، أو وسمها بالحضارة .. وكفي ! وإذا كتب في التاريخ عن العصور القديمة والوسطي والحديثة ، وذم العصور الوسطي لأنها تمثل مرحلة من

مراحل تخلفه ظن أن علي جميع الأقوام والشعوب في كل بقاع المعمورة أن تصنع ذلك ـ وقد فعل مترجمونا ذلك[1] ـ والتقسيمات الجغرافية كذلك إنما وضعها من وجهة نظره ، لأنه هو الذي يقبع في مركز المعمورة وسرة الأرض ! وهذه هى التقسيمات المتداولة ـ حتي عندنا ـ تشهد بذلك ، كالشرق الأوسط والشرق الأقصي ... إلخ .

ولهذا كان النهوض بالكتابة عن عظمائنا في التاريخ ودورنا في تاريخ الإنسانية أمراً لازماً تنبه إليه المربون ودعاة الإصلاح يوم أخذوا علي عاتقهم في وقت مبكر إعادة الأمة إلي لغتها ودينها وأصالتها الفكرية والحضارية ... في تيار هادر من الجهاد الدائم والحركة الهادفة الدءوب . وقد أشار العقاد في زحمة هذا التيار ، وما تخلله من نقيق أولئك النقلة والمترجمين الذين ظفر بهم الاستعمار من مقامه في بلاد الإسلام ، إلي لزوم الحديث عن العظماء وفي هذه المرحلة بالذات ، فقال :

« وإيتاء العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل قبيل .. ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى لسببين متقاربين لا نسبب واحد : أحدهما : أن العالم اليوم أحوج ما كان إلي المصلحين النافعين لشعوبهم والشعوب كافة .. ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق ، معرض للجفوة والنكود . والسبب الآخر : أن الناس قد اجترءوا علي العظمة في زماننا بقدر حاجتهم إلي هدايتها .. فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة : حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة . ولقد جار هذا الفهم الخاطيء للمساواة علي حقوق العظماء السابقين ، كما جار علي العظماء من الأحياء والمعاصرين » .

---

(١) وأبرز مثال علي ذلك ما يكتب ـ أو ما لايزال يكتب ـ عن « المسألة الشرقية والرجل المريض » وبخاصة في الكتب المدرسية والتعليمية .

ولنا أن نضيف هنا ملاحظتين : الأولي : أن الشيوع الذي أشار إليه العقاد أغري أصحاب المذاهب الجماعية من الدهماء ، بالتطاول علي عظماء الإسلام وتاريخ المسلمين ، ولكنهم لم يستغنوا عن الإشادة « بعظماء » ! مذاهب الهدم من كل ملة فاسدة ودين مدخول ! أما الملاحظة الثانية : فهي أن عرض الأستاذ السباعي لتاريخ هذه النخبة من عظماء الإسلام امتاز بكونه دعوة غير مباشرة إلي العودة لأخلاق الإسلام في عصوره الذهبية ، كما قال هو نفسه رحمه الله ، استمع هنا إلي قوله : « فليس أجدي في التربية من أن نجعل شبابنا يعيشون في أجواء عظمائهم ، لينشئوا عظماء في أخلاقهم وسلوكهم وأهدافهم ، ولينهضوا بعبء الرسالة التي كلفهم الله بحملها في كل جيل .. » .

وهذا يؤكد ما أشرنا إليه من الهدف التربوي ـ وواجب الدعوة ـ الذي قصد إليه الشيخ رحمه الله من كتابته هذه الفصول ، بعيداً عن المذاهب الفردية والجماعية في تفسير التاريخ ، وبعيداً عن المدارس الأوروبية في فهم خصائص العظمة والعبقرية .. تلك التي انطلق العقاد ـ علي سبيل المثال ـ من إحداها في تحليله للعبقريات الإسلامية المشهورة .

ـ ١٢ ـ

ولكننا لا نشك في أن مجرد العرض لتلك الأجواء ، ومجرد الإشارة إلي أبرز نواحي العظمة في تاريخ هؤلاء العظماء ـ كما فعل أستاذنا الرائد رحمه الله ـ كاف في نقض مزاعم أصحاب المذهب المادي في تفسير التاريخ ، الذين يؤمنون بالاقتصاد كدافع وحيد ، وبالدهماء كصانع وحيد ! لأن « واقع » عظمائنا يكذب هؤلاء ، مهما غلوا في التفسير والتأويل .. ولأن هذا الواقع من جهة أخري لا يثبت دور البطولة الفردية فحسب بل يضع يدنا كذلك علي دور الفكرة في صنع هذه العظمة أو البطولة ... وهنا تكمن النظرة الإسلامية إلي العامل الحقيقي في صنع التاريخ ... هذا العامل هو الأفكار قبل أن يكون الأفراد أو الشعوب .. فأصحاب المذاهب

الجماعية يرون أن « البطولة » لا تنشأ في فراغ ، بل هي جزء لا يتجزأ من تطور المجتمعات الإنسانية ، تكمن قوتها في تعبيرها عن حاجات مجتمعاتها قبل كل شيء ، وفي كونها طلائع لحركة التاريخ ، دون أن تكون التاريخ ذاته ! ويري هؤلاء أن سير العظماء إنما هي من مخلفات العصور الخرافية حين كان الإنسان يتحول إلي نمط معين عن طريق التكرار .. ومن ثم إلي الذاكرة الجماعية ، ومحاولة البعض تقليد سابقيهم فالعامة لا يفهمون التاريخ ولا يعترفون به ، بل يحولونه إلي أساطير تتحول فيها الشخصيات الحقيقية إلي شخصيات خرافية : بطولية وملحمية ... قالوا : ولقد حاول الرجل البدائي أن يغفل التاريخ جهد الطاقة لأنه كان في نظره مضاداً لفكرة التطورالمبتكر !! علي حين أن « الإنسان الحديث » - بحسب تعبيراتهم - يتأثر بالتاريخ وبحركته العامة ، ناظراً إلى البطولة والأبطال نظرة ديمقراطية اجتماعية في نطاق الطبيعة الإنسانية ذاتها وفي نطاق المفهوم المنطقي للتطور البشري صوب الأمام !

وإذا كان من المؤكد أن البطولة لا تنشأ في فراغ ، فإن من غير المسلم به أن قوتها تكمن في التعبير عن حاجات مجتمعها قبل كل شيء ! لأن « بطولة » الأنبياء والمصلحين ثبتت بمقدار التغيير لا بمقدار التعبير ، وبمقدار المخالفة بين حاجات المجتمع وتطلعات الرواد ! بل لعل البطولة هنا تكمن في نجاحها المطلق في تقديم « النموذج » أو المثل الأعلي والأسوة العملية لبني الإنسان ... بعيداً عن هذا التمييز الصحفي أو السياسي بين الإنسان القديم والإنسان الحديث !! وبقية العجب في أصحاب هذه المذاهب الجماعية زعمهم أن العامة لا يفهمون التاريخ ولا يعترفون به ! وقولهم مع ذلك : إنهم هم الذين صنعوه أو يصنعونه علي الدوام !! .

- ١٣ -

وإذا كان دور البطل أو العظيم لا يجهل في التاريخ ، سواء أكان طليعة له ، أم كان هو التاريخ ذاته فإن بعض المفكرين يقول : إن البشر

لا يصنعون التاريخ إلا إذا كانت لهم أغراض وغايات .. والذي نقوله هنا - وصولًا إلي الفكرة الرئيسية في هذا التقديم - إن هذا إن كان لا يحتاج إلي تأكيد ، لأن البطل ليس ممثلًا أو عارضاً ! إلا أن الغرض والغاية من وراء الفكرة أو الاعتقاد ، فالفكرة هي التي توجد العظيم ويخدمها العظيم ... ترفعه وتظهره إذا تمثلها كاملة وسعي إلي تحقيقها ، وبمقدار نجاحه في هذا السعي تظهر فيه صورة البطولة والعظمة .

ولسنا ننكر هنا دور الفطرة الموروثة والاستعداد في مواهب التكوين ، ولكن هذا بالقياس إلي الأغراض والأفكار شروط بجانب الأركان ، بحسب تعبيرات الفقهاء . وعلي هذا الأصل نفهم دعاء النبيﷺ بأن يعز الله سبحانه الإسلام بأحب العمرين إليه - عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام - وعلي هذا الأصل نفهم لماذا أدي عمر بن الخطاب ذلك الدور في تاريخ الإنسانية الذي لا مطمح وراءه لطامح .. ولماذا تواري أبو جهل وراء رمال الجزيرة لا يؤبه به ولا يلتفت إلي مثله ، وأصل الدعاء لأحدهما يشير إلي إمكان ترقي أيهما في مدارج العظمة والكمال . ولعل العقاد قصد إلي شيء من هذا حين قال في كتابه « عبقرية عمر » إنه كتاب « يقرأ .. فيه القاريء قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر علي هذا الوجود . كان قدرة تلابس الضعيف فيقوي ، وتلابس القوي فتنمي قوته وتجري في وجهته . وكان يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه فإذا هي صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوي للضمائر والأذهان » .

وعلي هذا ، فإنه يجب علينا من أجل التمييز بين أدوار العظماء في التاريخ - من أجل التصنيف والموازنة والترجيح - أن نبحث في القضايا التي دافعوا عنها ، والأفكار التي نهضوا بها ورفعوا منارها وثبتوا دعائمها قبل البحث عن مكامن الموهبة في العناصر والسلالات والملامح والأشكال ... ولا خلاف بعد التقاء هذه بتلك أن الشعوب التي تنهض

بفكرة ، وتستجيب فبها لنداء البطل أو العظيم أن نثبت دورها في التاريخ بمقدار تلك المواءمة وهذا النهوض ... فلا مجال عندنا هنا لوضع العظماء والشعوب أحدهما في مقابلة الآخر ، فإما أن نكون في صف الفرديين أو في صف الجماعيين ! .

ومن هنا ندرك سر هذا الحشد الكبير من العظماء في صدر الإسلام وندرك مع ذلك سر ذلك التنويع الهائل لنواحي العظمة عندهم ... لأن ذلك كان متساوياً مع العقيدة الإسلامية وما فيها من توازن وشمول وإيجابية .. وكان أيضاً كفاء استعدادهم واستجابتهم لأفكارها وموازنتها وسماتها ...

وغني عن البيان أن نضيف إلي ذلك أيضاً : أن هذا هو الذي يبرز لماذا كان محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- بطل الأبطال ، وعظيم العظماء .. فى تاريخ بنى الإنسان !!

وإلي ذلك جميعاً يشير الأستاذ السباعي رحمه الله في مقدمته لهذه الفصول بقوله : « وأمتنا أغني الأمم بالعظماء ، وما عرف تاريخ أمة من الأمم قدراً من العظماء يملئون التاريخ بمآثرهم وآثارهم كما عرف ذلك تاريخ أمتنا العظيمة » ، ثم يقول رحمه الله تعالي ورضي عنه : « ولا غرو في ذلك ، فنحن أمة نستمد من رسولنا كل نواحي العظمة ، وهو القدوة الكاملة لكل ما نهدف إليه من غاية ، ونتخلق به من خلق ، وما نعمل له في الحياة من خير وهدي » نعم ولا غرو في ذلك وعقيدة القرآن هي عقيدة الإنسان ، وإنسان القرآن هو إنسان العالمين ، ورسول الله خلقه القرآن كما تقول السيدة عائشة في تلك الكلمة العبقرية الفذة ! فهو لذلك نموذج الإنسانية الكاملة ، ومثلها الرفيع ، وعظيم عظمائها إلي يوم الدين . « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ورحم الله أستاذنا السباعي الذي يقول : « فبهدي رسول الله نهتدي ، وعلي طريقته نسير ، ومن معين عظمته نرتوي ، ولأعلام هدايته نحمل ، وتحت لوائها

نكافح .. » .

- ١٤ -

وأخيراً ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : أن دارسة الشخصيات الإسلامية « تقتضي إدراكاً كاملًا لطبيعة استجابة الشخصيات الإسلامية لإيحاءات الفكرة الإسلامية ، فإن طريقة استجابة تلك الشخصيات لهذه الإيحاءات مسألة هامة في صياغة شعورها بالقيم ، وسلوكها في الحياة ، وتفاعلها مع الأحداث .. » .

ثم يقول : « لقدر ازدحمت فترة تاريخية قصيرة - في صدر الإسلام - بحشد من النماذج الإنسانية الفائقة في كل اتجاه .. ولابد من تعليل شامل لهذه الظاهرة الغريبة ، ولا مناص من اعتبار الفكرة الإسلامية بكل حيوتها وبكل فاعليتها سبباً رئيسياً لهذا الانبعاث . فعنصر الفكرة الإسلامية هو الجديد علي هذه البيئة التي ازدحمت بهذا الحشد من النماذج الفريدة في تاريخ البشرية كله . وعندئذ يتحتم علي الباحث في تاريخ هذه الفترة ، وعلي الدارس لهذه النماذج المحشودة فيها أن يحسن إدراك الفكرة التي بعثت وجمعت هذه الثروة الضخمة من المواهب والعبقريات والكفايات » .

- ١٥ -

ونقف فى نهاية المطاف عند بعض الملامح الخاصة فى هذه الفصول . تحدث الأستاذ السباعى رحمه الله فى أول فصول الكتاب عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحاول أن يومىء إلى نواحى الكمال المطلق فى شخصه الكريم ، بل جعل ذلك جزءا من فاتحة هذه الفصول ، وهذا هو الأمر في تراجم عظماء استمدوا عظمتهم من نبي الإنسانية ومثلها الكامل وقدوتها الكريمة عليه صلوات الله وسلامه . ولكن الأمر في هذه الإيماءات وفي كل ما يكتب في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام هو ما أشار إليه العقاد في كتابه « عبقرية محمد » - عليه الصلاة والسلام - حين قال في نهاية مقدمته لهذا الكتاب : « وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانا توميء إلي

تلك العظمة في آفاقها ، فإن البنان لأقدر علي الإشارة من الباع علي الإحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير » ولكن إشارات الأستاذ السباعي رحمه الله تمتاز بأنها من بنان داعية ، ومن قلب محب ، ومن وراء موقع القيادة والمسئولية في حقل الدعوة والدعاة . (انظر إشاراته إلي صلح الحديبية) .

ونشير هنا - بهذه المناسبة - إلي أن الأستاذ السباعي رحمه الله كتب فصلًا آخر عن الجانب الحربي والسياسي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل عنوان هذا الفصل أو المقال : « عبقرية الرسول السياسية والحربية » عرض فيه لبعض شواهد عبقرية النبي - عليه الصلاة والسلام - في هذين الجانبين ، وربما زين ذلك لبعض القراء أن يقفوا عند العناوين أو عند ألفاظها ومفرادتها فحسب ليثيروا حولها الغبار ، أو لينشئوا حولها الردود ، نظراً لما يعلمه الجميع من أن النبوة شيء والعبقرية أو العظمة شيء آخر . ومثل هذا لم يغفل عنه الأستاذ السباعي رحمه الله ، بل أشار في كتابه « هكذا علمتني الحياة » إلي طرف من هذا التفريق ، فقال : « الفرق بين النبوة والعظمة هو أن مقاييس الكمال في النبوة يقاس بمن في السماء وياما أكملهم ! ومقاييس العظمة تقاس بمن في الأرض وياما أسوأهم ! » وقال أيضاً في خاطرة أخرى « النبوة سماء تتكلم نوراً ، والعظمة تراب يصعد غروراً ، إلا أن العظمة المستمدة من النبوة فإنها نور من الأرض يتصل بنور من السماء » .

وتكفينا هذه الخاطرة الثانية في وضع النقاط على الحروف حول هذه النقطة ، لأنها تشير إلي أن وصف النبي بالعظمة أو العبقرية لا يراد به أن النبوة من جنس هذه العبقريات أو البطولات ، حتي تحل محلها أو تغني غناءها ... لكن يراد به مجموعة الملكات والمواهب والاستعدادات التي فطر الله عليها نبيه ، فهي له نور في الأرض ، قبل أن يتصل به نور السماء : « نور علي نور » والله تعالي يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . - ومن هنا كان مبدأ « العصمة عن الكبائر » قبل النبوة

وبعدها ـ وقد تعلمنا من تاريخ النبوات ، أن الله سبحانه وتعالي لم يبعث نبياً إلا وكان له من صفاء النفس ، وقوة الروح ، وذكاء القريحة ، ووفور العقل ، والأمانة في المعاملة ، والاستقامة في الضمير والسلوك ... إلا وله من هذه الصفات أعلاها شرفاً وأبعدها منالاً ، ولكن ليس معني ذلك أن كل من كان عنده طرف من هذه الصفات صار نبياً أو كانت عبقريته نبوة !! لأن النبوة اختيار وليست بكسب . إن النبوة ـ وبتشبيه نرجو ألا يكون فيه شيء من التجاوز أو الإسفاف ـ « تستقبل » ما تعطاه من عالم الغيب ، ونقاؤها وصفاؤها وصفحتها البيضاء شرط في ذلك كما علمنا « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ولكن ليس كل من ملك هذا الشرط « قدر » أن يكون نبياً إذا لم يكن هنالك علم يبث أو وحي يوحي !!

فلا خوف أن نتحدث عن الشمائل الإنسانية عند النبي صلى الله عليه وسلم تحت أي عنوان ، لندل علي أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان عظيماً بكل مقياس ، وأن حظه من التوقير والاحترام والإعجاب ، وأن مكانته في التقدم علي عظماء الأرض ... يجب أن يشارك فيها المسلم وغير المسلم . وهذا هو الذي حمل العقاد علي تأليف كتابه المعروف ، ولم يحمله عليه رغبة في تضييع معالم النبوة أو إنكارها !... قال العقاد : « ولهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوي في إقراره المسلمون وغير المسلمين نافعاً في هذا الزمن الذي التوت فيه مقاييس التقدير . إنه لنافع لمن يقدرون محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس بنافع لمحمد أن يقدروه ، لأنه في عظمته الخالدة لا يضار بإنكار ، ولا ينال منه بغي الجهلاء ، إلا كما نال منه بغي الكفار » . ثم يقول : « وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم ، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري علي مجراه فيها ، لأن مسلماً يقدر محمداً صلى الله عليه وسلم علي هذا النحو يحب محمداً مرتين : مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس » .

ونضيف هنا : أن الله سبحانه لم يجعل من شمائل محمد صلي الله عليه

شمائل إنسانية بكل عرف وبكل قياس ، وبكل تقدير ، وفي جميع الأمكنة والأزمان ... إلا ليدل علي أنه نبي الإنسانية الكامل ، ومثلها الأعلي .. وملاذها الأخير .. صلي الله عليه ، وجزاه عنا وعن الإنسانية جميعاً أفضل الجزاء .

وقد نلمس في استعمال الأستاذ السباعي لمصطلح العبقرية هذا سبباً آخر ، إذا لاحظنا أنه لم يورده بإطلاق ، ولكنه استعمله في باب السياسة والحرب ... ليشير إلي مبدأ العلل والأسباب ، والمشورة وتوزيع المهام ، مما يجب علي كل قائد وزعيم أن يلتفت إلي مثله ؛ وبما يجعل من هذا الدين منهجاً للبشر ، لا مجموعة من الخوارق والمعجزات .. وهذا المعني الأخير ، مع الأسف ، هو الذي استقر في أذهاننا ونحن صغار علي مقعد الدرس ، .. كان يوضع في روعنا - كإحدي وسائل التربية الفاسدة ، وقراءة التاريخ الإسلامى قراءة باطلة - أن النصر في الحروب هو علي الدوام من حظ الصف الإسلامي .. وكفي ! حتي إذا صادفنا غير ذلك تعبت رءوسنا الصغيرة ، واحترنا في التفسير والتأويل ! .. والإشكال الحقيقي لا يكمن هنا ، ولكنه يكمن في ذلك الإعفاء التلقائي الذي كنا نجده في نفوسنا من النهوض بالتبعة وأخذ الأهبة ، والاستعداد لتحمل الأصابة والتضحية والمسئولية .. مما يتعارض - كما علمنا بعد - مع أبسط قواعد القرآن الكريم وواقع تاريخ الإسلام والمسلمين . « إن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم » « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

وقد نجد في بعض خواطر الأستاذ الداعية رحمه الله ما يؤكد سبب ذلك الإطلاق أو الاستعمال : فضلًا عن محاضراته المعروفة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم . ونحن هنا لا نطيل الوقوف أمام موضوع السيرة - وقد أفرده الأستاذ بالتصنيف - بل ننقل هنا بعض تلك الخواطر ... لنعيد في ضوئها قراءة ما أشرنا إليه ، ولنقرأ فيها كذلك صورة الداعية القائد الذي أدرك سر عظمة النبوة ، وسر خلود النبي دون سائر العظماء

والمصلحين : يقول الشيخ : « سر عظمة النبوة في محمد صلى الله عليه وسلم أنه ترك من بعده خلفاء عنه في قيادة الدعوة ، يفهمون شريعته كما يفهمها ، ويتخلقون بأخلاقه كما أدبه ربه ، فاستمرت الدعوة من بعده ، وأدركت رسالتها في التاريخ » .

ويقول : « ليس الخلود أن يتحدث التاريخ عن الخالدين ! ولكن أن تسري أرواحهم في الأحياء المتعاقبين ، وأن تعمل أخلاقهم عملها في كل عصر علي مر التاريخ . ولم يجتمع ذلك لعظيم كما اجتمع لمحمد صلى الله عليه وسلم » .

ولعمري ، إن هذه الحكمة العبقرية لا تنطوي علي الوجه الحقيقي لتقدير عظمة النبي صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل تشير كذلك إلي رأي الشيخ رحمه الله في تعريف البطولة والعظمة بإطلاق !

ويقول أخيراً : « بأبي أنت وأمي يارسول الله ! ما أروع سيرتك ، وما أعظم بركتها ، إنها المدرسة الإلهية لكل قائد وكل زعيم ، وكل رئيس ، وكل حاكم ، وكل سياسي ، وكل زوج ، وكل أب . أنت المثل الإنساني الكامل لكل من أراد أن يقترب من الكمال في أروع صوره واتجاهاته ومظاهره ، فالحمد لله الذي أنعم بك علينا أولاً ، وعلي الإنسانية ثانياً » .

- ١٦ -

أما الفصول التي تناول فيها الأستاذ رحمه الله الحديث عن الخلفاء الأربعة بوجه خاص ، فقد عني فيها بإظهار أهم نواحي عظمة كل واحد منهم . كما عني بإثبات نصوص من كلامهم وخطبهم ، وهي النصوص التي كان قد نشرها وعلق عليها تحت عنوان « في مدرسة الروح » الذي أشرنا إليه . وقد جعل عنوان كل فصل من هذه الفصول : « مع فلان .... » وقد عني بذلك ، كما هو واضح ، في مدرسة الروح مع فلان . ولسنا هنا بسبيل الدراسة أو التدقيق في نواحي العظمة تلك ، التي رآها الشيخ رحمه الله ، أو أحب أن يسلط عليها الأضواء ... علي ما لهذه الرؤية أو هذا الاختيار من دعم الهدف التربوي والنظر من موقع الدعوة والريادة الذي أشرنا إليه . ولكن إذا سلمنا بالملاحظة القائلة بأن أجمع هذه

النواحي تتمثل في الناحية التي كان يبرزها أولا ، ويضعها تحت الرقم الأول ، فإن هاهنا ملاحظة عابرة ، أو ذكرى عزيزة أحب أن أثبتها للقارىء الكريم :

في حديث الشيخ رحمه الله عن أبرز نواحي عظمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه .. بدأ بالكلام علي « علمه » قبل صفاته الأخري . وإذا كانت فروسية سيدنا علي وشجاعته لا مجال فيها للارتياب ، لأنها مضرب الأمثال ! فإن تسليط الأضواء علي الناحية السابقة ينبه الأذهان إلي وصف بارز في حياة الإمام ، حري بنا أن نلتفت إليه ، وأن نقف عنده ، قبل أن نعيد مضغ ما قيل حول تلك الشجاعة النادرة ، هل وضعت موضعها ، وكان الاحتكام إليها حيث لا يجدي غير القتال والنزال ، أم لا !! فالدرس الذي نخرج به من هذه الشجاعة ، أنها الشجاعة المثلي التي يحتذيها الشجعان ... وأنها الشجاعة التي كانت دفاعاً عن حق ودين ، ... وأنها الشجاعة التي يليق بصاحبها أن يقضي شهيداً في بيت من بيوت الله وليقل بعد ذلك من يقول إن إخفاق الإمام في مسعاه كان لتفرق قومه عن حقهم ، ولاختلاف الظروف والأحوال . وليظن من يظن أنها شجاعة لم توضع في موضعها علي الدوام .. فإن هذا ليس بضائر للإمام ، وليس بعائد علي الدرس المستفاد من فروسيته وشجاعته بالإبطال والإعدام !

كان علي بن أبي طالب فارس الفرسان .. وكفي !

أما علمه وقضاؤه وفقهه ، فما أحرانا أن نقف عنده ، ونتملى فيه نبوغاً آخر وعظمة أخري ، لندرك أن هذا العلم الواسع كان قرين تلك الشجاعة المثلي ...

ولعل الأستاذ السباعي رحمه الله يلتقي في تقديم هذا الجانب العلمي من شخصية سيدنا علي بن أبي طالب ـ إن صح أنه يقدمه ـ مع الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله ، الذي كان يري ذلك أيضاً كما حدثني ـ معلماً ـ ذات مرة ! .. كان ذلك في منزله بضاحية الزيتون بالقاهرة بمناسبة الكلام

علي كتاب إعجاز القرآن للباقلاني . وما قاله الباقلاني بشأن بعض الآراء « والنظريات » حول هذا الموضوع . وبعد طرف من النقاش الذي قصدت من ورائه إلي الاستزادة من الشرح والبيان . ألقي إلي الشيخ ـ عليه الرحمة والرضوان ـ بالقول : إن كتاب الباقلاني هذا يتضمن أبلغ خطبة في الرثاء قرأها في حياته .. وهي الخطبة أو الكلمة التي قالها علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .ـ وأثبت هنا طرفاً منها ، تكون بمناسبة نص آخر من كلام الإمام ، يلحق باختيارات الأستاذ السباعي رحمه الله ـ

« قال : لما قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ، كيوم قبض النبى صلى الله عليه وسلم وجاء على باكياً مسترجعاً وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر ، فقال :

« رحمك الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه ، وثقته وموضع سره ، كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم علي رسول الله ، وأثبتهم علي الإسلام ، وأيمنهم علي أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم سنناً وهدياً ، ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده . فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً .

« كنت للدين يعسوباً ، أولا حين نفر عنه الناس ، وآخراً حين قفلوا . وكنت للمؤمنين أباً رحيماً ، إذ صاروا عليك عيالا ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا . شمرت إذ خنعوا ، وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك مالم يحتسبوا .

« وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال : ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله ،

متواضعاً فى نفسك . عظيما عند الله . جليلا فى أعين الناس ، كبيراً فى أنفسهم .

« شأنك الحق والصدق والرفق . وقولك حكم وحتم . وأمرك حلم وحزم ، ورأيك علم وعزم . فأبلغت وقد نهج السبيل . وسهل العسير ، وأطفأت النيران . واعتدل بك الدين وقوي الإيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون . وأتعبت من بعدك إتعابا شديداً ، وفزت بالخير فوزاً عظيماً ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء ، وهدت مصيبتك الأيام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره . فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبداً ، فألحقك الله بنبيه ولا حرمنا أجرك . ولا أضلنا بعدك » .

قال : « وسكت الناس حتي انقضي كلامه . ثم بكوا حتي علت أصواتهم » .

قال أستاذنا الشيخ أبو زهرة رحمه الله : مقام الإمام عندي في أعلي درجات العلم والأدب .. ولو سئلت أن أختار له ـ كرم الله وجهه ـ المحل الأليق به ، والأشبه بطبعه وتكوينه وما أثر عنه ، لاخترت له أرفع مناصب العلوم والآداب .. ولقلت للناس : عليكم . بهذه المنارة وهذا اللواء ، فاقتبسوا من نور هذا الإمام . واجعلوه بينكم محجة للعلم والعرفان .

ـ ١٧ ـ

لا يتسع المجال فى مقدمة الطبعة هذه لأكثر من هذه الكلمات والإشارات . وتكفينا الإشارة السابقة حول حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه الإشارة حول حياة بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .. هذه الإشارة التي أومأت كذلك إلي ذكري عزيزة ، هي ذكري عظيم آخر من عظمائنا في التاريخ القريب .. أستاذنا العلامة الشيخ محمد أبو زهرة . وليس غريباً بعد ذلك أن يقول أبو زهرة رحمه الله ، وقد زار دمشق وبعض البلاد

السورية الأخري ، واجتمع فيها إلي العلماء والعاملين ... أن يقول : إنه لم ير هنا أعلي من السباعي همة ، وأعظم منه نفساً ، وأشد منه علي الإسلام والمسلمين حرقة وألماً ... ويستدرك أبو زهرة فيقول : إن حديثي يابني ليس عن الفقه المدون ، والعلم المكتوب ، والمسألة المحفوظة في مراجعها من بطون الكتب والأوراق !!

رحم الله أستاذنا العلامة الشيخ محمد أبو زهرة ..

ورحم الله أستاذنا الداعية الشيخ مصطفي السباعي ..

فقد كانا عظيمين من عظمائنا في التاريخ القريب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د . عدنان محمد زرزور

* * * *

المقـــــــدّمـة(*)

تختلف ميادين العظمة في هذه الحياة ، فمن العظماء من تقتصر عظمتهم علي عبقرية في العلم ، ومنهم من تقتصر علي عبقرية في الحكم ، ومنهم من تبرز عبقريته في الحرب ، ومنهم من تتجلي عظمتهم في الفضيلة والأخلاق ...

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جمع نواحي العظمة كلها في ذاته الكريمة ، فما من ناحية من نواحي الحياة إلا كان فيها عظيماً ، كان في العلم والحكمة سيد العلماء والحكماء ، يتنزل عليه الوحي من ربه بما يفيض علي الإنسانية حكمة وأدباً وتشريعاً متقناً خالداً ، وكان في الخلق والأدب مثال الكمال في ضبط النفس ، ورقة القلب ، وسماحة اليد ، وعفة الضمير ، واستقامة السيرة ، وكان في الحكم والرئاسة عظيم العظماء لم يعرف التاريخ مثله في سياسته وحسن قيادته ، وتأليفه بين القلوب ، وقدرته علي توجيه إمكانيات الأمة كلها في طريق واحد ، وغاية واحدة ، وكان في الحرب بطلًا لا يعرف الخوف ، مقداماً لا يعرف التردد ، رحيماً لا يعرف القسوة ، يضع الأمور في مواضعها ، فإذا كان العفو أنفع للناس ، وأرجي للخير ، كان سيد من عفا وسامح ، وإذا كانت العقوبة أوقع في الزجر ، ، وأحسم للشر ، كان أقوي من عاقب ، وأحكم من زجر ..

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لكل عظيم ، والقدوة الكريمة لكل عبقري ، والقائد الموفق لكل مصلح ، ولا عجب في ذلك ، فهو إمام

(*) الشهاب : ع : ٨ تاريخ ١٩/٦/١٩٥٥ .

الأنبياء ، وأكرم الرسل ، أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وأنعم عليه فأكبر خلقه ، ثم بعثه رحمة شاملة للناس جميعاً ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[١] . وأمتنا أغني الأمم بالعظماء . وما عرف تاريخ أمة من الأمم ، قدراً من العظماء ، يملئون التاريخ بمآثرهم وآثارهم ، كما عرف ذلك تاريخ أمتنا العظيمة ، ولا غرو في ذلك ، فنحن أمة نستمد من رسولنا كل نواحي العظمة ، وهو القدوة الكاملة لكل ما نهدف إليه من غاية ، ونتخلق به من خلق ، وما نعمل له في الحياة من خير وهدي ، وما يستوي لأحد منا أمره ، ويستقيم له سبيله ، حتي يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوته وإمامه « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة »[٢] فبهدي رسول الله نهتدي وعلي طريقته نسير ، ومن معين عظمته نرتوي ، ولأعلام هدايته نحمل ، وتحت لوائها نكافح ...

وفي هذه الصفحات التالية ، عرض لنماذج عظماء التاريخ الإسلامي ، رباهم محمد صلى الله عليه وسلم في حياته[٣] ، فكانوا خير جيل أنجبته الرسالات خلقاً وكمالًا وجلالًا . رباهم رسول الله بعد وفاته - بروحه وشريعته - فكانوا مصابيح الهدي في كل عصر ، وملاذ الشعوب في كل جيل ، وأئمة الناس في كل ما يصلح شئونهم من دين ودنيا ، وعلم وحكمة ، وأدب وفضيلة ، وكفاح ونضال ، وبذل وفداء ، .. فصلوات الله وسلامه علي نبينا الأعظم ، ورحمة الله ورضوانه علي عظمائنا الخالدين ..

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٣) صدرنا هده الصفحات - أولا - بما كتبه الأستاذ رحمه الله عن النبى صلى الله عليه وسلم فى موضع آخر . وما اختاره من أقوال الغربيين فى الرسول الكريم وشريعته .

* * * *

فــي مَـدرسَــة الــــرّوح(*)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعـــــد :

ففي غمرة هذا الصراع العالمي بين الخير والشر ، يسلك دعاة الإصلاح كل سبيل لنصرة الخير ، ويعدون من وسائل ذلك ، التربية والتعليم والوعظ ، وكل ذلك نافع ومفيد ، لولا أن هذه أسلحة يمكن أن يساء استعمالها ، بل قد أسيء استعمالها في الكثير الغالب ، فأقدر الناس علي التلاعب بالقانون أعلمهم بنصوصه ومبادئه ، وأجرأ الناس علي تجاوز حدود الأخلاق ، أعلمهم بفلسفتها ونظرياتها ، وأكثر الناس وقوعاً في الإثم ، أكثرهم إحاطة بنصوص الشرع وحيل الفقهاء ، وأشد الناس تكالباً علي الدنيا أكثرهم ترغيباً عنها وتزهيداً بها .. وبذلك انقلب الدواء داء ، والطبيب مريضاً ، ولا علاج لذلك إلا أن تطهر القلوب من أدران الهوي ، وتصفي النفوس من شوائب الدنيا ، وتسمو الأرواح إلي حيث يشعر المؤمن أنه بين يدي الله في كل لحظة ، ومن راقب الله خجل من أن يراه علي معصيته ، ومن اتصل بالله عز عليه أن ينقطع إلي ما سواه ، ومن ذاق لذة الأنس به

(*) الشهاب : ٢٢ .

استوحش من شهوات الدنيا وآثامها ..

ونحن لم نكن مصابيح الدنيا ، إلا يوم كنا بالله موصولين ، ولجلاله مراقبين ، ومادانت لنا الدنيا إلا يوم علوناها بنفوسنا وأرواحنا ، فأشرقنا عليها من سماء الروح إشراقاً نلامسها ولا نتدنس بها ، ونصرفها ولا تصرفنا.. كذلك كان عظماؤنا الخالدون .

وهذه دروس مستقاة من آثار هؤلاء الخالدين ذوي الأرواح الكبيرة ، والنفوس العظيمة ، سننتقيها من واحد بعد واحد ، ونجمعها طاقات منوعة تفوح منها رائحة الأزاهير ، فلا تمل منها النفس ، ولا تسأم منها الروح ، وهي بذلك أبلغ أثراً من أن تنظم في أبواب ، وتجمع علي فصول ..

إن كل درس منها يجمع شتي المواعظ ، ومختلف الحكم ، فلا يزال أثرها جديداً كلما عاود المؤمن قراءتها ، وذلك هو سر خلود القرآن العظيم وطلاوته التي تمتلك القلوب ، ولا تزيده معاودة القراءة إلا حلاوة وروعة .

وإنا لنسأل الله أن ينفع بها شباباً آمنوا بالإسلام ، وتاقوا إلي أن يكونوا مع الخالدين ... ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ .

* * * *

شَخصيّة الرّسُول وَأثــرُه

إن محمداً عبد الله ورسوله ...

أما محمد الرسول ــ ﷺ ــ فلن يفكر أحد أن يكون مثله أو قريباً منه ، في إشراق روحه ، واتصاله بالملأ الأعلي ، يتلقي الوحي ، ويتنزل عليه الهدي آيات بينات ! لن يصل أحد إلي هذا ولا إلي قريب منه ، لأن الله ختم بنبوته النبوات ، وبشريعته الشرائع ..

وأما محمد الإنسان ، فهو هو الذي يحرص كل مسلم علي أن يكون ظله في الأرض ، يتخلق بخلقه ، ويهتدي بهديه ، ويأتي به في صبره وجهاده ، وزهده وعبادته ، وتضحيته وإيثاره ، ومأكله وملبسه ، وما أعتقد أن الله أكرم رسوله الإنسان بمدح أعلي من هذا المديح ﴿ **وإنك لعلي خلق عظيم** ﴾[1] .

تعال بنا لنتخطي أسوار الزمن حتي نصل إلي عتبة « محمد الرسول الإنسان » فنري روح الحياة السارية المشرقة في مجتمع فاض بالبطولات والمروءات ، حتي يكاد تاريخه يلتحق بالأساطير ، لولا أنه حق لا مرية فيه ، وصدق لا كذب معه .

---

(1) سورة القلم الآية : ٤ .

أوصـــافه الخلقيـــة :

قالوا في أوصافه عليه الصلاة والسلام[1] إنه كان : ظاهر الوضاءة ، متبلج الوجه ، له نور يعلوه ، إذا زال زال تقلعاً ، يخطو تكفياً ويمشي هونا ، ذريع المشية كأنما ينحط من صبب ، خافض الطرف ،نظره إلى الأرض أطول من نظره إلي السماء ، جل نظره الملاحظة ، يمشي وراء أصحابه ، ويبدر من لقي بالسلام دائم الأحزان ، متواصل الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله ، وإذا تكلم أعاد الكلام ثلاثاً ليفهم عنه ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، أوتي جوامع الكلم ، واختصرت له الحكمة اختصاراً ، ليس بالجافي ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً (طعاما) قط ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتي ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، إذا نطق فعليه البهاء ، وإذا صمت فعليه الوقار ، أزين الناس منظراً وأحسنهم وجهاً ، وأجودهم ، وأسخاهم نفساً ، يعطي عطاء من لا يخشي الفقر ، وما سئل عن شيء

---

(١) أخذنا هذه الأوصاف من كتب السنة الصحيحة وكتب الشمائل النبوية وخاصة شمائل الإمام أبي عيسي الترمذي رحمه الله .

قط فقال لا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً[1] ..

تقول عائشة رضي الله عنها في مجامع خلقه : كان خلقه القرآن .

ويقول علي رضي الله عنه في وصف شخصيته : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

معيشتـــه فـــي نفســـه :

كان لا يتكلف في لباس ولا طعام ، يلبس ما يتيسر ، وأكثر لبسه المعتاد من لباس الناس ، وكان يلبس جيد الثياب إذا اقتضي الأمر لمقابلة وفود ، أو لمناسبة عيد ، وكان يأكل ما يجده ، فإن وجد اللحم والحلوي أكل ، وإن لم يجد إلا الخبز والزيت أو الخل أكل ، وإن لم يجد ما يأكله بات طاوياً ، وربما شد علي بطنه الحجر من شدة الجوع .

وكان ينام علي فراش من جلد حشوه ليف ، ويجلس علي الحصير وينام عليها كثيراً .

معيشتــه فـــي بيتـــه :

كان حلو المعاشرة لزوجاته ، كثير المسامرة لهن ، متحملًا

---

(١) متبلج الوجه : مشرقه . التقلع : رفع الرجل بقوة . يخطو تكفياً : يميل إلي سنن المشي وقصده . الهون : الوقار . ذريع المشية : واسع الخطو . الصبب : العلو . يبدر : يبدأ .

لأخلاقهن ، وخاصة غيرتهن ، وكان يقول : « خيركم خيركم لأهله »[1] .

وكان نساؤه يحتملن منه شدة الحال وخشونة العيش ، وكان يسره ذلك منهن ، فلما فكرن يوماً أن يطلبن منه التوسعة والزينة والمطعم ، شق ذلك عليه وهجرهن شهراً لا يكلمهن ، ثم نزل قوله تعالي :

﴿ يٰأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾[2] .

فلما نزلت هاتان الآيتان خير نساءه وبدأ بعائشة وقال لها : « ماأحب أن تختاري حتي تستأمري أبويك » ثم تلا عليها الآيات ، وفيها التخيير بين أن تبقي عنده علي شظف العيش وخشونة الحياة ، وبين أن يفارقها ويمتعها متاعاً جميلًا ، فكان جوابها علي الفور : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ! وكذلك فعل بكل واحدة من نسائه على انفراد فكان جوابها كجواب عائشة ، وهي لا تعلم بما أجابت به غيرها[3] .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٢) سورة الأحزاب ٢٨ ــ ٢٩ . والسراح : الطلاق ، ومتعة الطلاق : ما تعطاه المطلقة ، وهو يختلف حسب السعة والاقتدار .

(٣) تفسير الطبري : ٩٩/٢١ .

وظل هكذا شأنه مع نسائه من التقشف وخشونة العيش حتي توفاه الله .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « ما شبع آل محمد يومين من خبز البر ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا إلا التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد ، إلا كسرة خبز من شعير علي رف لي »[1] .

وقال أنس : « رهن النبي ﷺ درعاً له علي شعير يأخذه لطعام أهله »[2] .

عملـه فـي بيتـه :

سئلت عائشة رضي الله عنها : ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ في البيت ؟ فقالت : كان بشراً من البشر ، يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته ، فإذا حضرت الصلاة خرج[3] .

معاملتـه لأصحـابـه :

١ ـــ يقول أنس خادم رسول الله صلي الله عليه وسلم : خدمت

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد .

النبي عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ وكان لا يظلم أحداً أجره[1] .

٢ ــ وقالت عائشة رضي الله عنها : ما ضرب شيئاً قط ، ولا ضرب امرأة ولا خادماً[2] .

٣ ــ وقال أبو هريرة رضي الله عنه : دخلت السوق مع رسول الله ﷺ ليشتري سراويل ، فوثب البائع إلي يد النبي ﷺ ليقبلها ، فجذب يده ، ومنعه قائلًا له : « هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم » ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبي وقال : « صاحب الشيء أحق بأن يحمله » .

٤ ــ وكان عليه الصلاة والسلام مرة في سفر مع جماعة فلما حان موعد الطعام ، عزموا علي إعداد شاة يأكلونها .

فقال أحدهم : عليّ ذبحها .

وقال الآخر : عليّ سلخها .

وقال الثالث : عليّ طبخها .

فقال النبي عليه السلام : وعليّ جمع الحطب !

فقالوا : يارسول الله ، نحن نكفيك العمل .

فقال : علمت أنكم تكفونني ولكنني أكره أن أتميز عليكم وإن

---

(١) رواه البخاري .

(٢) الزرقاني شرح المواهب : ٤/٢٨٧ .

الله سبحانه وتعالي يكره من عبده أن يراه مميزاً بين أصحابه[1] .

٥ ــ جاء رجل من الأنصار يكني أبا شعيب فقال لغلام له قصاب : اجعل لي طعاماً يكفي خمسة ، فإني أريد أن أدعو النبي ﷺ خامس خمسة فإني قد عرفت في وجهه الجوع ، فدعاهم ، فجاء معهم رجل ، فقال النبي ﷺ لصاحب الدعوة : إن هذا قد تبعنا فإن شئت أن تأذن له فأذن له وإن شئت أن يرجع رجع ، فقال الأنصاري : لا بل أذنت له[2] .

٦ ــ وكان من عادته ﷺ مع أصحابه أنه يقبل معذرة المسيء ولا يجابه أحداً بما يكره ، وإذا بلغه عن أحد شيء يكرهه ، نبه علي خطئه بقوله : « ما بال أقوام يفعلون كذا » دون أن يذكر اسمه .

٧ ــ ولم يكن يحب أن يقوم له أحد ، وكان يجلس حيث انتهى به المجلس ، وينزل إلي أسواقهم فيرشدهم إلى الأمانة وينهاهم عن الخداع والغش في المعاملات .

٨ ــ وكان من عادته أن يبش إلي كل من يجلس إليه حتي يظن أنه أحب أصحابه إلي قلبه .

٩ ــ ويقرب إليه ذوي السبق في الإسلام والجهاد ولو كانوا غمار الناس .

---

(١) الزرقاني شرح المواهب : ٤ /٢٦٥ .

(٢) رواه البخارى .

١٠ ــ ويستشير أولي الرأي فيما هو من شئون السياسة أو الحرب أو أمور الدنيا ، وينزل عند آرائهم ولو خالفت رأيه كما حصل في معركة بدر وغيرها .

خشيتــه وعبــادته :

كان ﷺ كثير المراقبة لله عز وجل ، واسع الخشية منه ، عظيم العبادة له ، في الليل متهجداً راكعاً ساجداً حتي تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدمع من خشية الله حتي يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، فتقول له في ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها : أتفعل ذلك يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيجيبها : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! ...

وكان كثير اللهج باسم الله عز وجل فإذا أكل أو شرب أو قام أو قعد أو ابتدأ شيئاً ، أو فعل أمراً بدأ ذلك كله باسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا اختتمه اختتمه بالحمد لله رب العالمين .

وكان لا يفتر من الدعاء لربه . ومن دعائه عليه الصلاة والسلام :

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يسمع[١] .

اللهم إني أسألك من الخير كله ، ما علمت منه وما لم أعلم ،

---

(١) رواه أحمد والحاكم وغيرهما .

وأعوذ بك من الشر كله ، ما علمت منه وما لم أعلم[1] .

اللهم أحسنْ عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة[2] .

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك[3] .

اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء[4] .

ولما كذبته ثقيف في الطائف ، وآذته وأغرت به سفهاءها يرجمونه بالأحجار حتي دميت قدماه ، اتجه إلي الله خالقه بهذا الدعاء الرهيب :

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وهواني علي الناس ، يا أرحم الراحمين إلي من تكلني ، إلي عدو يتجهمني ، أم إلي قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن ساخطاً علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السمٰوات والأرض وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تحل علي غضبك ، أو تنزل علي سخطك ، ولك العتبي حتي ترضي ، ولا حول ولا قوة

---

(١) رواه أبو داود والطبراني .

(٢) رواه أحمد والحاكم وغيرهما .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

(٤) رواه الترمذي والطبراني والحاكم .

إلا بك[1] .

رياضتـه ونظـافتـه :

ومع هذه العبادة ، وذلك التضرع والبكاء ، كان طيب النفس متفتحاً للحياة ، يتسابق مع عائشة ، ويتصارع مع ركانة ، ويشهد لعب الحبشة في أعيادهم ، ويعني بلباسه ونظافته ، فهو كثير الاغتسال ، كثير الأدهان بالطيب ، إذا مر من طريق يعرف الناس أنه قد مر به لما يجدون من طيبه ، وإذا صافحه المصافح يظل يجد أثر الطيب في يده ثلاثة أيام ، وكان لا يفارقه في حضره وسفره مشطه ومقصه ومرآته ومكحلته ..

وبهذا يفترق الأمر كثيراً عن معني الدين والتعبد في الديانات الأخري إذ يعتبرون من مآثر القديس عندهم أنه لم يقرب جسمه الماء طيلة حياته ! .

كما يفترق عن عادة الغربيين في هذه الأزمان إذ رأيناهم يعيبون علي الرجل أن يدهن بالطيب فتفوح رائحته الطيبة منه ، ولله في خلقه شئون ! .

مـزاحـــه ودعـابتـــه :

ومما يتصل بطيب النفس ، حب الدعابة البريئة ، والمزاح مع الأصحاب والمترددين عليه ، فقد كان ﷺ يحب الدعابة ويبتسم

---

(١) رواه الطبراني .

للنكته اللطيفة ، ويمازح أصحابه ويداعبهم بالنكات اللطيفة .

١ ــ جاءته امرأة عجوز تطلب إليه أن يدعو الله لها بدخول الجنة ، فقال لها مداعباً : أو ما علمت أن الجنة لا تدخلها عجوز ؟ ... فولت تبكي فقال : ردوها ، أما قرأت قوله تعالي : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء* فجعلناهن أبكاراً * عرباً أتراباً ﴾[1] .

٢ ــ وجاءته امرأة من الأنصار تشكو إليه زوجها .

فقال : أزوجك الذي في عينه بياض ؟ فجزعت إذا ظنت أن بعينه عيباً لم تطلع عليه ، فأفهمها أن كل إنسان في عينه بياض حول المقلة .

٣ ــ وجاءه أعرابي يسأله أن يمنحه ناقة يركب عليها في سفره .

فقال له : أنا حاملك علي ولد ناقة !

فقال : وما أصنع به يا رسول الله ؟

فقال : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟

تواضعــه وسمــاحتــه :

وقد رأيت فيما مر معك من معاملته لأصحابه أنها معاملة نبي كريم ، وزعيم محبوب متواضع ، وإنسان عظيم استمد عظمته من خصائصه لا من جاهه ولا من نفوذه .

---

(١) سورة الواقعة : ٣٥ ــ ٣٧ . والعرب : المتحببات إلى أزواجهن ــ والأتراب : المستويات فى السن والحسن .

ومما يروع في سيرة رسول الله ﷺ أنه ظل هو الإنسان المتواضع تواضع الأنبياء العظماء في مختلف مراحل دعوته ، حين كان مضطهداً ، وحين كان منتصراً ، وحين كان وحيداً ، وحين كان سيد الجزيرة العربية المطاع ، حين كان في أشد المحن ، وحين كان في أوج المجد والانتصار .. وما عهدنا بمثل هذا في تاريخ العظماء .. وما كان محمد عظيماً فحسب ولكنه رسول الله أيضاً ..

يوم فتح الله له مكة ، وانهزمت أمام جحافل جيوشه قريش الطاغية الباغية التي ناصبته العداء نحواً من عشرين عاماً ، دخل مكة على جمل له مطأطيء الرأس خضوعاً لله وشكراً .

وجاءه الرجال خائفين ، وفيهم رجل ترتعد فرائصه ، فقال له : هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ! « اللحم المقدد » .

وظل رسول الله يستمع إلي العبد والعجوز والأرملة والمسكين ، يقف في الطريق لكل من يستوقفه ، ويصافح كل من يلقاه ، فلا يترك يده حتي يكون الذي استوقفه هو الذي يترك يده ، يتفقد أصحابه ، ويزور مرضاهم ويشهد جنائزهم ، ويستمع إلي مشاكلهم ، ويشاركهم أحزانهم وأفراحهم .

رحمتــــه وشفقتــــه :

كان ﷺ واسع الرحمة بالأطفال والنساء والضعفاء .

سمع بكاء صبي وهو في الصلاة فخفف صلاته كيلا تفتن أمه التي كانت تصلي وراءه .

ومر بعد انتهاء إحدي المعارك بجثة امرأة مقتولة فغضب وقال : ألم أنهكم عن قتل النساء ؟ ما كانت هذه لتقاتل !

وبلغت رحمته بالحيوان حداً عجيباً فقد أصغي الإناء إلي هرة أرادت الشرب ....

ورأي جملًا هزيلًا فقال :

اتقوا الله في هذه البهائم ، أطعموها واركبوها صالحة ..

وبلغت معاملته للأرقاء ووصاياه فيهم حداً لم يعرفه التاريخ .

وكل ذلك دليل علي ما فاضت به نفسه الكبيرة من معاني الرحمة والشفقة .

مشاركتـــه لآلام الشعـــب :

اشتكت إليه فاطمة بنته ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وعناء ، وطلبت إليه أن يخدمها خادماً ، فرفض عليه السلام ذلك وقال لها : لا أعطيك وأدع أهل الصفة ــ وهم جماعة من الفقراء ــ تطوي بطونهم من الجوع[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد . ومعني : يخدمها خادماً : يعطيها خادماً . والصفة : الغرفة ، وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين ، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلي موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه .

وذهبت أم الحكم بنت الزبير وأختها فاطمة تسألان النبي ﷺ معونة علي أعمالهما البيتية فقال لهما : سبقكما يتامي بدر[١] .

وأتي النبي ﷺ بيت، فاطمة ليزوره ، ثم عدل فلم يدخل عليها ، فبعثت علياً ليسأل عن سبب عدوله عن زيارتها ، فأجابه الرسول : إني رأيت علي بابها ستراً موشياً ! فعاد علي إلي فاطمة فأخبرها الخبر ، فقالت فاطمة : ليأمرني فيه بما شاء ، فقال عليه السلام : لترسلي به إلي فلان أهل بيت بهم حاجة[٢] .

وأراد زيارتها مرة أخري فعاد كذلك دون أن يدخل عليها فأرسلت تسأله عن سر ذلك أيضاً ، فأجابها : إني وجدت في يديها سوارين من فضة ، فبلغها ذلك فأرسلتهما إليه ، فباعهما النبي ﷺ بدرهمين ونصف وتصدق بهما علي الفقراء .

ونستعير هنا بيان أديب العربية الكبير المرحوم مصطفي صادق الرافعي ليعلق علي هذه الحادثة فيقول :

« يابنت النبي العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضي لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلها ؟! ..

أي رجل شعبي علي الأرض كمحمد ﷺ فيه للأمة كلها غريزة الأب ، وفيه علي كل أحواله اليقين الذي لا يتحول ، وفيه الطبيعة

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه البخاري .

التامة التي يكون بها الحقيقي هو الحقيقي ؟

يابنت النبي العظيم ! إن زينة بدرهمين ونصف لا تكون زينة في رأي الحق إذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف ! إن فيها حينئذ معني غير معناها ! فيها حق النفس غالباً علي حق الجماعة ، وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً علي الإيمان بالخير ، وفيها ما ليس بضروري قد جار علي ما هو الضروري ، وفيها خطأ من الكمال ، إن صح في حساب الحلال والحرام ، لم يصح في حساب الثواب والرحمة .

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ! إن مذهبكم ما لم تحيه فضائل الإسلام وشرائعه ــ إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط ، كل يوم تحلون ، وكل يوم تربطون ، ولا ثمرة في الطبيعة »[1] .

ونحن أيضاً نتساءل : أي زعيم من زعماء الدول الاشتراكية في عصرنا الحديث تؤثر عنه مثل هذه الحادثة وأمثالها ؟! .

زهـــده فـي الدنيـا :

دخل عليه عمر رضي الله عنه يوماً فرآه علي حصير قد أثر في جنبه ورفع رأسه في البيت فلم يجد إلا إهاباً معلقاً (الإهاب كيس من جلد) وقبضة من شعير وحصيراً تكاد تبلي ، فبكي عمر .

---

(١) وحي القلم : ٦٩/٢ ــ ٧٠ .

فقال له : ما يبكيك يـابـن الخطاب ؟

قال عمر : يا نبي الله ! ومالي لا أبكي ، وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أري فيها إلا ما أري ، وذاك كسري وقيصر ، في الثمار والأنهار ، وأنت نبي الله وصفوته ؟

فقال عليه السلام : أفي شك أنت يـابـن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا[١] . ودخل عليه ابن مسعود رضي الله عنه مرة فرآه علي تلك الحال .

فقال له : يارسول الله ألا آذنتنا حتي نبسط لك علي الحصير شيئاً ؟

فقال رسول الله ﷺ : « مالي وللدنيا ؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[٢] .

نفقاتــه وصـــدقاتـه :

وكان ﷺ كثير النفقات والصدقات ، لا يدخر مالًا ولا متاعاً ، وكثيراً ما يستدين لينفق علي بعض ذوي الحاجات ، وهو يعطي عطاء من لا يخشي الفقر كما قدمنا وقد توفي وليس عنده درهم ولا دينار ، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الغنائم ، وفي ذلك يقول الحديث المشهور الذي خفي علي بعض الطوائف سر روعته

---

(١) رواه البخاري وأحمد وابن ماجه بألفاظ متقاربة .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي . ومعني (آذنتنا) : أعلمتنا .

ودلالته على صدق نبوته وإخلاصه في رسالته : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »(١) .

جاءه مرة مال كثير فأنفقه إلا بضعة دريهمات استبقاها ، إذ لم يجد لها طالباً ، فما عرف تلك الليلة النوم قلقاً مما بقي عنده ، وما كاد يصبح الصباح حتي سارع إلى إنفاقها .. وهكذا صح فيه قول صحابته « كان أجود من الريح المرسلة »(٢) .

عــدله وشــدته فـي الحـق :

وكان لا يعرف في الحق صديقاً ولا قريباً فالكل عنده سواء ، والجميع مسئولون عن أعمالهم أمام الله وأمام الشريعة :

سرقت امرأة من بني مخزوم حلياً أو متاعاً ، ورفع أمرها إلي النبي ﷺ فاعترفت بالسرقة ، فخشي قومها أن ينفذ الرسول عقوبة السارق فيفتضحوا ، وجاءوا إلـى أسامة بن زيد ـــ وكان معروفاً بحب النبي ﷺ له ولأبيه زيد ـــ وكلموه في أن يشفع للمرأة أن لا ينفذ فيها العقوبة ، فكلم رسول الله في ذلك فغضب عليه الصلاة والسلام وقال له : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم جمع الناس فخطب فيهم فقال :

« يأيها الناس .. إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في أماليه : حديث صحيح متواتر .

(٢) صحيح البخاري : جـ٤ ـــ ص ٢٢٩ .

فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »[1] .

شجاعتـــه فـي الحـــروب :

ومن كمال هذه الصورة العجيبة في اكتمالها ، شجاعته ﷺ في الحرب ، فقد كان يقود الجيوش ، ويخوض المعارك ، ويحرض علي القتال في سبيل الرسالة التي حملها وآمن بها ، ولم يعرف عنه نكوص في معركة ولا فرار في موقعة ، بل نجده في معركة أحد ـــ وقد انهزم أكثر المسلمين ـــ ثابت الجنان يتلقي سهام الأعداء وهو واقف يقاتل ويناضل . وفي معركة حنين إذ فر عنه أكثر الناس وقف علي بغلته وهو يقول :

أنا النبي لا كذب　　　　أنا ابن عبد المطلب

وفي شجاعته يقول علي رضي الله عنه وهو البطل المقدام : كنا إذا احمرت الحدق ، وحمي الوطيس[2] نلوذ برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلي العدو منه .

حرصــه علي أداء رســالتــه :

لم يترك رسول الله ﷺ وسيلة لتبليغ رسالته إلي الناس إلا سلكها ولم يترك خصومه وسيلة لحمله علي ترك دعوته إلا سلكوها، ولكنه

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) أي اشتدت الحرب .

ثبت رغم كل إغراء وتهديد بالقتل والاغتيال وقال لعمه أبي طالب قولته المشهورة :

« والله ياعم لو ضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علي أن أترك هذا الأمر حتي يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته »[1] .

ولما شج وجهه ﷺ في معركة « أحد » وكسرت رباعيته[2] قيل له : لو دعوت عليهم ؟ .. فقال : إني لم أبعث لعاناً ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

الرســول الكامــل :

ذلك نمط من أخلاقه ﷺ نلمح منها حقيقة شخصيته ، ولسنا نفيض في بقية أخلاقه ، من وفائه ، وأمانته ، وحيائه ، وإخلاصه ، وصدقه ، وعفافه ، وحسن سياسته ، وجميل جواره ، وفصاحته ، وغير ذلك مما فاضت به كتب السيرة والتاريخ . فنحن هنا ــ كما قلت ــ نضرب الأمثال ولا نستقصي ، ولكني أختم هذا الحديث بالإشارة إلي ما كان لهديه في إرشاد قومه من أثر في توجيههم نحو الخير والحق والكرامة والسعادة .

الرســول المعلــم :

حياة الرسول ﷺ كلها إرشاد وهداية وتعليم ، وخاصة ما كان

---

(١) قال الهيثمي في (المجمع) ١٥/٦ : «رواه أبو يعلي ورجال أبو يعلي رجال الصحيح.

(٢) البخاري : ١٣٠/٥ والرباعية : السن المجاورة للناب .

من أقواله عليه الصلاة والسلام التي قصد بها التشريع والهداية ، ولذلك كانت خصائصه وصفاته التي ذكرنا طرفاً منها آنفاً مدرسة يتعلم فيها أصحابه طرازاً جديداً من الحياة ، ومقياساً جديداً من المفاهيم كان له أكبر الأثر في قيام الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ونشوء الفرد المسلم في الجو الاشتراكي الذي أوضحنا معالمه في كتابنا « اشتراكية الإسلام » .

ونحن هنا نريد أن نذكر نموذجاً من تعليمه لأصحابه نعلم منه كيف كان يوجه ذلك المجتمع الجديد العهد بالإسلام ، والقريب العهد بالجاهلية ، توجيهاً بناء إيجابياً نحو الحياة الاشتراكية العاملة العابدة المتعاونة البارة الكاملة ..

١ ــ جاء رجل إلي النبي ﷺ يريد الجهاد ، فقال : أحيّ والداك ؟ فقال : نعم ، فقال له الرسول : ففيهما فجاهد[١] .

٢ ــ قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس .

فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يَرحم لا يُرحم »[٢] .

٣ ــ جاءت امرأة إلي رسول الله ﷺ فقالت :

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

يا رسول الله ! إنا لا نقدر عليك في مجلسك فواعدنا يوماً نأتك فيه .

فقال : « موعدكن بيت فلان » فجاءهن لذلك الوعد ، وكان فيما حدثهن : « ما منكن امرأة يموت لها ثلاث من الولد فتحتسبهم إلا دخلت الجنة » فقالت امرأة : « واثنان » ؟ فقال « واثنان »[1]

٤ ــ كان رسول الله ﷺ مع أصحابه ، فقال لهم :

أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ .

قالوا : يا رسول الله ! ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . فقال ﷺ : « مالك ما قدمت ، ومال وارثك ما أخرت »[2] .

٥ ــ عن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً : اعلم أبا مسعود ! الله أقدر عليك منك عليه ، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ ، قلت : يا رسول الله ! هو حر لوجه الله !

فقال : « أما إنك لو لم تفعل لمستك النار » أو للفحتك النار[3] .

٦ ــ مرّ النبي ﷺ بدابة قد وسم يدخن منخراه ، فقال النبي ﷺ « لعن الله من فعل هذا ، لا يَسِمَنَّ أحد الوجه ولا يَضْرِبَنَّه »[4] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٣) رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد . ولفظ الدابة : يؤنث ويذكر .

٧ ـ وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه فإن لم يفعل فليناوله منه »[١] .

٨ ـ وقال أيضاً : « لا يقل أحدكم : عبدي ، أمتي ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، وليقل : غلامي ، جاريتي ، وفتاي ، وفتاتي »[٢] .

٩ ـ سئل النبي ﷺ : أي الأعمال خير ؟ قال : إيمان بالله وجهاد في سبيله ، قيل : فأي الرقاب أفضل ؟ (أي في العتق) .

قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها .

قيل : أفرأيت إن لم أستطع بعض العمل ؟

قال فتعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق (هو الذي لا يحسن صنعة) .

فقيل له : أفرأيت إن ضعفت ؟

قال : « تدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها علي نفسك »[٣] .

١٠ ـ قال حرملة بن عبد الله : جئت النبي ﷺ فقلت : ما تأمرني أعمل ؟

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري في الأدب المفرد .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

فقال عليه السلام : « ائت المعروف واجتنب المنكر ، وانظر الذي تكرهه أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فاجتنبه » .

قال حرملة : فلما رجعت تفكرت فإذا هما (أي ائت المعروف واجتنب المنكر) لم يدعا شيئاً[١] .

١١ ـ خطب رسول الله ﷺ يوماً بالصحابة فقال : « أيها الناس ! اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم وحملهم علي أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » وفي رواية أخري زيادة : « وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش »[٢] .

١٢ ـ عن عائشة بنت سعد أن أباها قال : اشتكيت بمكة شكوي شديدة (مرضاً شديداً) فجاء النبي ﷺ يعودني .

فقلت : يا رسول الله ! إني أترك مالًا ، وإني لم أترك إلا ابنة واحدة ، أفأوصي بثلثي مالي وأترك الثلث ؟

قال : « لا »

قال : أوصي بالنصف وأترك لها النصف ؟

قال : « لا »

قال : فأوصى بالثلث وأترك الثلثين .

فقال : « الثلث والثلث كثير . إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »[٣] .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٢) رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد .

(٣) رواه البخاري ومسلم وبقية كتب السنة .

١٣ ــ وكان مما قال لأبي ذر : « إفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وتبسمك في وجه أخيك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن طريق الناس لك صدقة ، وهدايتك الرجل في أرض الضالة صدقة »(١) .

١٤ ــ مر رجل علي النبي ﷺ ومعه بعض الصحابة فرأي أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم .

فقالوا : يارسول الله ! لو كان هذا في سبيل الله !

فقال عليه السلام : « إن كان خرج يسعي علي ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعي علي نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعي رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان »(٢) .

١٥ ــ وجاء رجل إلي رسول الله ﷺ يسأله شيئاً من المال وهو قوي معافي فقال له الرسول : أما في بيتك شيء ؟

قال : بلي ! حلس (كساء غليظ ممتهن) نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه من ماء .

فقال الرسول : ائتني بهما ، فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال الرسول : من يزيد علي درهم ؟ (مرتين أو ثلاثاً) قال رجل :

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وأخرجه الترمذي .

(٢) رواه الطبراني .

أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال له اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلي أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فائتني به ، فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده ثم قال : اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوماً ، ففعل ، فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشتري ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً ، فقال رسول الله ﷺ « هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث : لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفظع ، أو لذي دم موجع »[1] .

١٦ ــ وسأل رجل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير ؟

فقال : تطعم الطعام وتقرأ السلام علي من عرفت ومن لم تعرف[2] .

١٧ ــ وبينما النبي في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال له :

متي الساعة؟

فأجابه : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة .

قال : كيف إضاعتها ؟

قال : إذا وسد الأمر إلي غير أهله فانتظر الساعة[3] .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي والترمذي .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري .

١٨ ـ جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال :

يارسول الله ! ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ، فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله عز وجل[١] .

١٩ ـ عن أسماء بنت يزيد قالت : دخلت أنا وخالتي علي النبي ﷺ وعلينا أسورة من ذهب فقال لنا : أتعطيان زكاته ؟

قالت : فقلنا : لا .

فقال : أما تخافان أن يسوركما الله أسورة من نار ؟ أديا زكاته[٢] .

٢٠ ـ جاء رجل إلي مسجد النبي ﷺ فلما نزل عن ناقته سأل الرسول : أأطلق ناقتي وأتوكل ؟ فقال عليه السلام : اعقلها (أي اربطها) وتوكل[٣] .

٢١ ـ عن أبي بشر قبيصة بن مخارق قال : تحملت حمالة (أصلح بين قوم فتحمل ديات قتلاهم) فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها (أي أن يعطيه ما يعينه علي أداء ديات القتلي)

فقال الرسول : أقم حتي تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال :

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة .

(٢) رواه الإمام أحمد .

(٣) رواه الترمذي وابن حبان والطبراني .

ياقبيصة ! إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتي يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، أو قال سداداً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتي يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلت له المسألة حتي يصيب قواماً ، من عيش ، أو قال سداداً من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتاً[1] .

وبعد فهذه صورة خاطفة عن شخصية الرسول وأخلاقه وأسلوب تعليمه لأصحابه ، وهي صورة غير متكاملة ولا تامة ، ولكني اجتزأت منها ما يدل علي تمام الصورة وحقيقتها ، وتمام هذه الصورة كما يبدو مما ذكرته كتب السيرة أنه ﷺ جمع في وقت واحد أسمى ما تكون عليه صلة رسول بربه . وأروع ما تكون سيرة زعيم بشعبه وأكمل ما تكون علاقة مصلح بالعالم الإنساني كله .

أما الصلة بالله فكانت تتجلي في عبادته ودعائه وحرصه علي رضا الله ورجائه لثوابه .

وأما السيرة في الأمة ، فهي سيرة من أحب لأمته الخير ومنحها النصح ، ودلها علي الهدي ، وآثرها علي نفسه وأهله ، ولم يحتجن دونها مالًا ولا أثاثاً ولا رياشاً ، بل كان يعطيها ويحرم نفسه ، ويملأ بيوتها بالنعمة ، وإن بيوت أزواجه ليلفحها حر الخشونة والإقلال وشظف العيش ، وهي سيرة من لم يحمل اتباعه علي ترك الدنيا

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي .

ليعيشوا فيها كالغنم المشتتة بين قطيع الذئاب ! ولا حملهم علي ركوب الدنيا فيكونوا فيها كالكلاب المسعورة إن لم تنهش اللحم فقد مزقت الثياب ! أوقد فيهم جذوة العمل للحياة مع شعلة الإيمان بالله ، وبث فيهم روح الثورة علي الباطل ، والتمرد علي الظلم والترفع عن الدنايا ، وغرس فيهم ـــ وهم في الحرب ـــ أرق شمائل الإنسانية الرحيمة في السلم ، فكان في حربه أوسع صدراً وأكثر رحمة وأبر بالأسرى والضعفاء من كثير من زعماء الدول في سلمهم وسياستهم ورعايتهم للشعوب .

وأما الإصلاح للعالم الإنساني فحسبه هذا النظام الذي جنب العالم ويلات المادية وضعف الروحانية السلبية ، وحسبه هذه القوانين التي جاءت في اشتراكيتها نمطاً فريداً خلا من عيوب المذاهب الاشتراكية كلها وجمع محاسنها كلها .

حسبه من الإصلاح العالمي أنه أنشأ أول دولة اشتراكية إنسانية في العالم ، وأول مجتمع اشتراكي إنساني في التاريخ ، وأول جيل اشتراكي علمي إنساني يبني أسمي الحضارات .

ذلكم هو محمد رسول الله ! ... باني أول دولة ! ومنشيء أول مجتمع ! .. ومربي أول جيل ! في تاريخ الاشتراكية العملية الإنسانية الكريمة ... تلك هي اشتراكية الإسلام[1] ...

---

(١) من كتاب « اشتراكية الإسلام » الطبعة الثانية .

* * * *

من أقوال الغربيّين عن الرّسول وشريعته

قال المستشرق الفرنسي المسلم « ناصر الدين رينه » :

وكان النبي يعني بنفسه عناية تامة ، إلي حد أن عرف له نمط من التأنق علي غاية من البساطة ، ولكن علي جانب كبير من الذوق والجمال . وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق سبحانه وتعالي .

ومع هذا كان يحرم بشدة التغالي في الملبس ، وعلي الخصوص لبس الحرير ، حتي لا يتيح للأغنياء فرصة التعالي علي الفقراء ...

وقال غوستاف لوبون بعد أن نقل أوصاف الرسول عن المصادر الإسلامية :

ويضاف إلي الوصف السابق مارواه مؤرخو العرب الآخرون من أن محمداً كان شديد الضبط لنفسه ، كثير التفكير صموتاً ، حازماً ، سليم الطوية عظيم العناية بنفسه ، ومواظباً علي خدمتها بالذات حتي بعد اغتنائه .

وكان محمد صبوراً قادراً علي احتمال المشاق ، ثابتاً بعيد الهمة ، لين الطبع وديعاً ، فذكر أحد أنه ظل عنده ثماني عشرة سنة فلم يعزره قط في تلك المدة ولو مرة واحدة .

وكان محمد مقاتلًا ماهراً ، فكان لا يهرب أمام المخاطر ولا يلقي بيديه إلي التهلكة ، وكان يعمل ما في الطاقة لإنماء خلق الشجاعة والإقدام في بني قومه .

وقيل : إن محمداً كان مصاباً بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي ، وكل ما في الأمر مارواه معاصرو محمد ، وعائشة منهم ، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه إعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان ، وإذا عدوت حماسة[1] محمد ، وجدته حصيفاً سليم الفكر .

ولا يقف أي قول بخداع محمد ثانية أمام سلطان النقد ، ومحمد كان يجد في حماسه ما يحفزه إلي اقتحام كل عائق ، ويجب علي من يود أن يفرض إيمانه علي الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء ، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله فيتقوي فلا يرتد أمام أي مانع .

وجمع محمد قبل وفاته كلمة العرب ، وخلق منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد ، فكانت في ذلك آيته الكبري .

ومهما يكن الأمر فإن مما لا زيب فيه أن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك كان فضل محمد علي العرب

---

(١) العبارة الأصلية « هوس » وهو يقصد بذلك الحماسة والاندفاع .

عظيماً ، ويتجلي هذا الفضل العظيم في جواب رسل عمر بن الخطاب إلي كسري حين سألهم عن أعمال النبي ، قال : أولئك الرسل .

« فأما ما ذكرت من سوء حالنا فما كان أحد أسوأ حالًا منا ، وأما جوعناً فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فكنا نرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل ، فكانت ظهر الأرض ، ولم نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، كان ديننا أن يقتل بعضنا ويغير بعضنا علي بعض ، وكان أحدنا يدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرنا لك ، فبعث الله إلينا رجلًا معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إنى أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذ لم يكن شيء وكل شي هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء والي يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم علي السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق » .

وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ ، وأخذ بعض علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمي بصائر مؤرخيهم عن الاعتراف بفضله ، قال

العلامة بارتلمي سنت هيلز : « كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تديناً وأعظمهم رأفة ، ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، ونعد دينه الذي دعا الناس إلي اعتقاده جزيل النعم علي جميع الشعوب التي اعتنقته » .

وقال « كارليل»

لقد أصبح من أكبر العار علي كل فرد ممدن في هذا العصر أن يصغي إلي ما يظهر من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ، أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولي بهاأن لا تخلق » . وما نظن أكبر محب للرسول يقول فيه وفي دعوته عن طريق المنطق أحسن من هذا .

وقال تولستوي الحكيم الروسي :

« ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً

أنه هدي أمة برمتها إلي نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام » .

وقال وليم موير في كتابة « سيرة محمد » :

امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه ، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة ، في زمن قصير كما فعل محمد .

ويؤخذ مما قاله لين بول : « إن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق ، حتي إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتار بما تتركه هذه الصفات فى نفسه من أثر ، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميل أو هوي ، كيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواماً ، فلم يهن له عزم ، ولا ضعفت له قوة ، وبلغ من نبله أنه لم يكن في حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحه ، حتي ولو كان المصافح طفلًا ، وأنه لم يمر بجماعة يوماً ، رجالًا كانوا أو أطفالًا دون أن يقرئهم السلام ، وعلي شفتيه ابتسامة حلوة ، وفي فيه نغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعها ، وتجذب القلوب إلي صاحبها جذباً » . ومما قاله أيضاً : «إن كثيراً من كتاب التراجم والسير من الأوربيين الذين تناولوا الكلام علي سيرة محمد لم يتعففوا عن أن

يشوهوا هذه السيرة بما أدخلوه عليها من افتراءات وادعاءات ، كاتهاماتهم إياه بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك في الشهوات ، وأنه كان دجالًا دعياً وطاغية متعطشاً لسفك الدماء » .

وعلل **مونتيه** طعن بعض الغربيين علي الرسول بقوله :

« كثيراً ما حكمت عليه الأحكام القاسية ، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله ، وإن ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع ، يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية » .

وقال : « لا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسته » .

قال جان جاك روسو في القرن الثامن عشر :

« من الناس من يتعلم قليلًا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمداً يمليه علي الناس بتلك اللغة الفصحي الرقيقة ، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر في شغاف القلوب ، ورآه يؤكد أحكامه بقوة البيان ، لخر ساجداً علي الأرض وناداه : أيها النبي رسول الله خذ بأيدينا إلي مواقف الشرف والفخار ، أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » .

وقال كارلايل أيضاً : « إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه أكبر دليل علي تباين الأذواق في الأمم المختلفة . والترجمة تذهب أكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة » .

وجاهر **كلود فارير** في القرن العشرين بأن « آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها ، فيها نفحة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعو إلي حماية الضعيف وإلي عبادة إله واحد » .

وقالت « **لورافيشيا فاعليري** » أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي بإيطاليا :

وحاول أقوي أعداء الإسلام ـــ وقد أعماهم الحقد ـــ أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة ، لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته ، ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد علي تهديد الكاذبين والمرائين ، فى بعض آيات القرآن اللاسعة ، بنار الجحيم الأبدية . لو كان هو قبل ذلك رجلًا كذاباً ؟ كيف يجرؤ علي التبشير ، علي الرغم من إهانات مواطنيه ، إذا لم يكن ثمة قوي داخلية تحثه ـــ وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة ـــ حثاً موصولًا ؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً ؟ كيف وفق إلي أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات في مكة ، في نجاح قليل جداً وفي أحزان لا تحصي ، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته ؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء ، وأن يؤازروه ويدخلوا الدين الجديد ويشدوا أنفهسم بالتالي إلي مجتمع مؤلف في كثرته من

الأرقاء ، والضعفاء ، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق ؟ ولسنا في حاجة إلي أن نقول أكثر من ذلك ، فحتي بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع علي أن صدق محمد كان عميقاً وأكيداً .

* * * *

مَــع رَسُــول الله(*)

« صلّى الله عليه وَسَلّم »

« فى ذكرى المولد تتجه الأنظار إلى المربى الأعظم صاحب الروح الكبيرة التي وسعت آلام الإنسانية وآمالها . فقد غرس في الدنيا ــ لأول مرة ــ من أخلاقه ومن روحانيته ومن تربيته صلوات الله وسلامه عليه ، ما ملأ الأرض بالنور ، والعدل والحق . وفي هذه النبذة القصيرة التي نذكرها من أدب رسول الله مع ربه ، ومع صحبه ، ومن مواقع كلمه نماذج من تعاليم مدرسته الروحية الكبري التي أشرقت لها السموات والأرض » .

أدبــه فــي عبادتــه :

كان عليه الصلاة والسلام يجد في العبادة مجلي راحته ، وميدان نعيمه ، كانت قرة عينه في الصلاة ، وكان يقول لبلال حين يريد القيام للصلاة « أرحنا بها يابلال »[1] يطيل السجود حتي لتظن عائشة أن الله قد اختاره لجواره وهو ساجد ، ويستحضر من الخشوع

(*) الشهاب : ٢٨ .

(١) رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد ــ كشف الخفا للعجلوني : ١٠٨/١ .

والخضوع لله عز وجل ما تفيض منه عبراته ، حتي كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل « القدر » من البكاء[1] ، ويكثر من الصلاة في أعقاب الليل ، حتي لتسأله عائشة عن كثرة عبادته ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فيقول لها : أفلا أكون عبداً شكوراً[2] ؟ ...

أدبه مع أهله :

وكان مع هذه العبادة وهذا التبتل يحسن معاملة أهله ، ويداعب أزواجه ، ويتحمل منهن دعابتهن ، وغيرة بعضهن من بعض ، كان يحب عائشة أكثر من زوجاته الأخريات ، وكان يرسل إليها بنات الأنصار يلعبن معها ، وإذا أحبت شيئاً لا محذور منه ، تابعها عليه . وإذا شربت من الإناء . أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب منه .

أدبه في معاملته :

كان من أحسن الناس معاملة ، وأصدقهم موعداً ، وأبرهم عهداً . إذا استسلف من رجل شيئاً قضاه إياه ودعا له فقال : بارك الله لك في أهلك ومالك[3] . تقاضاه غريم له ديناً فأغلظ عليه ، فهم

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل : ١٦٥ وأبو داود عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه .
(٢) رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه ـ سنن الترمذي ٢/١٣٧ .
(٣) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن ربيعة ـ الترغيب والترهيب للمنذري : ٢/٥٦٦ .

به عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مه[1] ياعمر ! كنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء ، وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر » .

أدبه في صحبته :

كان ــ كما قال علي رضي الله عنه[2] ــ أوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشرة ، وكان يتألف قلوبهم ، ويكرم كريمهم ، ويتفقدهم في شئونهم ، ويعطي كلا من جلساته نصيبه من التكريم ، حتي يحسب جليسه أنه ليس أحد أكرم عليه منه . من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتي يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو ميسوراً من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء . دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يحب ، ولا يقابل أحداً بما يكره ، إلا أنه في الحق من أشد الناس غيرة علي حرمات الله ، وإنكاراً علي انتهاك آداب الشريعة ، يجالس الفقراء ، ويصغي إلي العبد والأرملة والمسكين . قال أبو هريرة : دخلت السوق مع النبي ﷺ ، فاشتري سراويل ، وقال للوزان :

---

(١) مه : اسم فعل أمر بمعني اكفف واسكت .

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (باب صفة رسول الله) بألفاظ متقاربة ، عن علي وهند ابن أبي هالة . وذكره ابن سليمان الفاسي في مجمع الفوائد : ٢/٤٤٩ ــ ٤٥١ برواية الطبراني في المعجم الكبير عن هند بن أبي هالة ــ وكان وصافاً ــ .

« زن وارجح » فوثب البائع إلي يده ﷺ يقبلها ، فجذب يده وقال : « هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم » ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله »[1] ... وكان في مجلسه كثير الصمت لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عمن يتكلم بغير جميل ، وكان ضحكه تبسماً ، وكان كلامه فضلًا لا فضول ولا تقصير ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، قال ابن أبي هالة : كان سكوته ﷺ علي أربع : علي الحلم والحذر والتقدير والتفكر[2] ..

نماذج من مدرسته الروحية :

ــ ثلاث لا يغل عليهن قلب امريء مؤمن (أي لا يخون فيهن) : إخلاص العمل لله ، والمناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم . رواه البزار وابن حبان[3] .

ــ إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، وابتغي به وجهه . رواه أبو داود[4] .

---

(١) رواه أبو يعلي ، والطبراني في الأوسط ، والدارقطني في الإفراد ، والعقيلي في الضعفاء عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة ــ كشف الخفا : ٢ /١٩ .

(٢) دلائل النبوة : ٢٤٥ .

(٣) والترمذي في سننه : ٣٠٧/٧ بألفاظ متقاربة .

(٤) والنسائي عن أبي أمامة ، وصححه الحاكم ، وقال المنذري وابن حجر : إسناده جيد ، وقال العراقي : حسن ــ المناوي في فيض القدير : ٢٧٥/٢ .

ـــ إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوي ، فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله ، فهجرته إلي الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلي دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلي ما هاجر إليه[١] .

ـــ اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن[٢] .

ـــ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : ياغلام ! إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا علي أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء ، قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف[٣] . وفي رواية أخري[٤] ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلي الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع

---

(١) رواه الشيخان ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن عمر بن الخطاب ـــ الترغيب والترهيب : ١/٥٦ ـــ ٥٧ .

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ـــ السيوطي في الجامع الصغير : ١ / ١٩ .

(٣) رواه الترمذي في سننه وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) للإمام أحمد .

الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً[١] ..

من مـزاحـه صلي الله عليه وسلم

المـــزاح مـن السنـة :

قال أنس ابن مالك ، كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس[٢]

وقال أيضاً : قال رسول الله ﷺ روحوا القلوب ساعة بعد ساعة[٣] .

وسئل سفيان الثوري ؟ المزاح هجنة ؟ فقال : بل سنة ، لقوله عليه السلام إني لأمزح ولا أقول إلا الحق . رواه الطبراني . وقال أبو هريرة : قالوا يارسول الله إنك تداعبنا ! قال : إني لا أقول إلا حقاً[٤] .

مـزاحه مـع عجـوز :

أتت عجوز من الأنصار إلي النبي ﷺ[٥] فقالت : يارسول الله ادع لي بالمغفرة ، فقال لها : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز !

---

(١) سنن الترمذي : ٧ / ٢٠٤ .

(٢) رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس بن مالك ، ورواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ـ المغني عن حمل الأسفار للعراقي : ٢ / ٤٠ .

(٣) رواه أبو داود في مراسيله عن أنس بن مالك ـ فيض القدير : ٣ / ٤١ والترمذي في الشمائل : ١٦٥ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وأحمد ، والترمذي في الشمائل والسنن عن أبي هريرة ـ النبهاني في الفتح الكبير : ٤٦٠/١ .

(٥) رواه الترمذي في الشمائل مرسلاً عن الحسن البصري : ١٢٢ .

فبكت ، فتبسم عليه الصلاة والسلام وقال لها : « لست يومئذ بعجوز » أما قرأت قوله تعالى: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء* فجعلناهن أبكاراً * عرباً أتراباً ﴾[1] .

مزاحه مع أم أيمن :

جاءته امرأة يقال لها : أم أيمن في حاجة لزوجها ، فقال لها : من زوجك ؟ قالت : فلان ، فقال : الذي بعينه بياض ؟ فقالت : يارسول الله ما بعينه بياض ؟ قال : بلي إن بعينه بياضاً . فانصرفت عجلي إلي زوجها وجعلت تتأمل عيينه ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : أخبرني رسول الله ﷺ أن في عينك بياضاً ، فقال لها : أما ترين بياض عيني أكثر من سوادها[2] ؟ .

مع الحسن والحسين :

قال جابر بن عبد الله : دخلت علي النبي ﷺ ، والحسن والحسين علي ظهره وهو يمشي بهما علي أربع ويقول : نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما . رواه ابن عدي وابن عساكر[3] .

---

(١) الواقعة:٣٥-٣٧-عرب (بضمتين) جمع عروب بوزن عروس ، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها . الأتراب : جمع ترب ، أي مستويات في السن والحسن .

(٢) رواه الزبير بن بكار في الفكاهة والمزاح ، وابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري ــ المغني عن حمل الأسفار : ٣ / ١١٢ .

(٣) ورواه الطبراني عن جابر ــ مجمع الزوائد للهيثمي : ٩/١٨٢ .

مـــع زوجـــاتـه :

كان عليه السلام في بيت عائشة ، فبعث إليه بعض نسائه بقصعة ، فدفعتها عائشة ، فألقتها وكسرتها ، فجعل النبي عليه السلام يضم الطعام ويقول : (غارت أمكم) ! فلما جاءت قصعة عائشة ، بعث بها إلى صاحبة القصعة التي كسرتها ، وأعطي عائشة القصعة المكسورة[١] .

مـــزاح أصحـــابه معـــه :

كان من الصحابة رجل يقال له « نعيمان » كثير المزاح ، حلو الفكاهة ، وكان يمازح رسول الله ﷺ ، ومن مزحه معه أنه كان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشتري منها ثم يجيء بها إلي النبي ﷺ فيقول : يارسول الله هذا أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطالب نعيمان بثمنها ، جاء به إلي النبي ﷺ ، فيقول : يارسول الله أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول عليه السلام : أولم تهده لي ؟ فيقول : يارسول الله إنه والله لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك عليه ويأمر لصاحبه بثمنه[٢] .

ومن فكاهاته أن أبا بكر خرج قبل وفاة الرسول بعام في تجارة إلي

---

(١) أبو الشيخ الأصفهاني ـــ أخلاق النبي وآدابه : ٧٢ .

(٢) رواه الزبير بن بكار في الفكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا المغني عن حمل الأسفار للعراقي : ١١٣/٣ .

بصري ، ومعه « نعيمان » و « سليط بن حرملة »[1] وكان سليط موكلًا بالطعام ، فقال نعيمان لسليط : أطعمني ، قال : لا أطعمك حتي يأتي أبو بكر ، فقال نعيمان : لأغيظنك ، فمروا بقوم فقال لهم نعيمان : تشترون مني عبداً لي ؟ قالوا : نعم . قال : فإنه عبد له كلام وسيقول لكم : لست بعبد أنا ابن عمه ، فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه ، فلا تشتروه ، ولا تفسدوا علي عبدي ، قالوا : لا بل نشتري ولا ننظر في قوله ، فاشتروه منه بعشر قلائص ، ثم جاءوا ليأخذوا « سليطاً » على أنه هو العبد الذى باعه لهم نعيمان فامتنع سليط من الذهاب معهم ، فوضعوا فى عنقه عمامة وشدوه بها فقال لهم : إنه يتهزأ ولست بعبده ، فقالوا له : قد أخبرنا خبرك ، ولم يسمعوا كلامه ، ثم ساقوه معهم بالقوة ، فجاء أبو بكر ، فلما علم بالخبر ، اتبع القوم فأخبرهم أن نعيمان يمزح ، ورد عليهم القلائص وأخذ سليطاً منهم ، فلما قدموا علي النبي ﷺ أخبروه الخبر فضحك من ذلك هو وأصحابه حولًا كاملًا[2] .

* * * *

(١) صوابه : سويبط بن حرملة ، كما في أسد الغابة لابن الأثير : ٤٨٧/٢ والإصابة للحافظ ابن حجر : ٩٦/٢ .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود الطيالسي ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة : وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب عن أم سلمة ـــ حياة الصحابة : ٥٦٤/٢ . والقلاص : جمع قلوص وهي النوق الشابة .

عَبقـريّة الرّسول السّياسيّة والحَربيّة(*)

حياة رسول الله ﷺ وسيرته هي المثل الأعلي الذي يحتذيه كل مسلم ، وهي علي تقادم العهد بها ، جديدة في كل عصر ، توحي لكل فئة من فئات الأمة بما يبعثها نحو الخير ، ويدفع بها إلي ميادين الخلود ، وإذا كانت ذكري المولد النبوي الكريم حبيبة إلي قلب كل مسلم ، فإن هذه الذكري أحب ما تكون إلي قلب الداعية المسلم ، إذ يجدد فيها صلته بقائده الأعظم ، ويراجع فيها حسابه معه ويزيد فيها من إمعانه النظر بخطط الدعوة في مراحلها الأولى حين كان رسول الله ﷺ يضع أصولها ويوجّه دفتها بما ينزل عليه من وحي ، وما تهتدي إليه عبقريته من وجوه الحق ومسالك النصر .

وسنقصر حديثنا اليوم علي ناحية واحدة من النواحي التي تهم الدعاة إلي الله قادة وجنوداً ، وهي ناحية جديرة منا بالعناية والدرس ، إذ يتوقف علي فهمنا لها نجاح الدعوة في المواقف الحرجة إلي حد كبير .

كان رسول الله ﷺ يحرص علي أن لا يواجه الأعداء جميعاً في

(*) الشهاب : ع : ٢٨ تاريخ ٢٠ /١١ /١٩٥٥ .

وقت واحد ، فإذا تجمعوا لقتاله حرص علي التفريق فيما بينهم بكل الوسائل ، حتي إذا أمكنته الفرصة بطش بأقواهم ثم بمن بعدهم حتي يتم له النصر ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام حين يريد الأمر فيحال بينه وبين ما يريد ، تأخذه حمية المقاتل الذي يصر على أن ينتصر ، بل كان يقدر الظروف المحيطة به ، ويقارن بين ما يريد وبين ما يعرض له من فرصة ، فإن وجدها أجدي عليه مما يريد عمل بها وأخر ما يريد إلي وقت آخر . وبذلك نجت الدعوة في حياته من كثير من المتاعب ، وحال دون تألب الأعداء عليه جميعاً إلا حين لم يستطع لذلك دفعاً كما في غزوة الأحزاب ، وأنزل الضربات المتتالية بأعداء الدعوة فريقاً إثر فريق ، وتنازل في مواقف الشدة عن بعض مظاهر القوة ليدفع شراً ، أو ليكسب من وراء ذلك نصراً وإليكم الأمثلة علي ذلك ..

في المدينة مع اليهود :

لما استقر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد هجرته كان لابد له من أن يستعد لنزال قريش وخوض الحرب معها ، فما كانت قريش بالتي ترضي أن تكون للرسول في المدينة العزة والمنعة . وهي التي حرصت ثلاثة عشر عاماً علي مناصبة دعوته العداء ، فكيف وقد أفلت من يدها وأصبح في المدينة سيدها وقائدها ورئيسها المحبوب ؟ . لقد كان الصراع مع قريش بعد الهجرة ــ صراعاً حربياً ــ أمراً متوقعاً في نظر الرسول ﷺ وكان في المدينة ــ مع الأوس والخزرج ــ عدد كبير من اليهود يسكنون في أرباضها أو علي

مواقع تحيط بها ، ولم يكن يتوقع الرسول من اليهود سلماً لدعوته ورضا بانتشارها وهم الذين كانوا يستولون علي مقدرات سكانها من الأوس والخزرج ، ويثيرون العدوان بينهم ، لتظل لهم السيطرة السياسية والمالية عليهم ، فكيف يرتاحون إلي وحدة كلمة هؤلاء المؤمنين من جيرانهم ، وانتهاء الحروب والفتن الداخلية فيما بنهم ؟ هذا مع ما فاض به تاريخ اليهود من محاربة لرسل الله ، وقتل لأنبيائه ، وإثارة للفتن والعداء في كل مجتمع يعيشون فيه ، وبذلك واجه الرسول في المدينة جبهة أخري معادية لدعوته ، بعد أن كان العداء بينه وبين خصوم الدعوة في مكة محصوراً في قريش ومن يناصرها .. هنا تتجلي حكمة الرسول البعيدة المدي ، إذ بادر إلي عقد ميثاق بينه وبين يهود المدينة ليأمن شرهم ، ويمنعهم من مؤازرة قريش في معاركها المقبلة . ووضع الميثاق ، وأصبح اليهود مواطنين في المدينة ، يربطهم الميثاق الجديد بالدفاع عن المدينة ممن يقصد غزوها ، وبأن يكونوا مع المؤمنين فيها يداً واحدة علي النوائب ، ومن هنا استطاع الرسول أن يتفرغ لرد عدوان قريش ، وأن يخوض معها بدراً وأحداً وغيرهما من المعارك ، آمناً في جبهته الداخلية ، مكفياً شر اليهود ، وهم أقدر علي إيذائه من قريش ، إذ كانوا في أرباض المدينة وما حولها .

مع يهود بني قينقاع :

ولكن طبيعة اليهود تأبي إلا الغدر والخيانة ، فما كاد رسول الله ﷺ ينتصر علي قريش في بدر حتي ثارت في يهود بني قينقاع عوامل

الحقد والبغضاء ، فأظهروا للمسلمين شراً ، وغدروا ببعض نساء الأنصار ، فهتكوا حرمتهن ، ولم ير رسول الله ـــ وهو الذي يعلم أن هؤلاء اليهود سيكون منهم ما كان من بني قينقاع ـــ أن يجاهرهم جميعاً بالعداء ، بل حارب بني قينقاع وحدهم ، وتم له إجلاؤهم عن ديارهم ، وظل علي عهده مع بقية اليهود ، إذ لم يبد منهم في الظاهر ما يدل علي نقض الميثاق ، ولأن معركته مع قريش لم تنته بانتصاره عليها في بدر ..

مـع يـهود بنـي النضيـر :

وتحرك بعد ذلك بنو النضير ، وهم يجاورون المدينة وقد كانوا حلفاء الخزرج قبل الإسلام ، وناصبوا الرسول العداء ، وبيتوا علي قتله ومن معه فأنذرهم الرسول بوجوب الجلاء عن مساكنهم ، بعد أن بدا منهم الغدر ، فلما أبوا وتحصنوا في حصونهم ، نازلهم المسلمون وتغلبوا عليهم ، فاضطروا للجلاء عن ديارهم علي أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب .

مـع يهـود بنـي قريظـة :

وظل الرسول بعد ذلك محافظاً علي ميثاقه مع بقية اليهود الذين لم ينقضوا الميثاق ، مع أن الدلائل كلها تدل علي أنهم جميعاً محنقون من انتشار الدعوة ، مبيتون للغدر بالرسول ومن معه ، ذلك أن رسول الله سار علي هذه الخطة الحكيمة وهي ألا يحارب في جبهتين وأن يتقي أقوي الجبهتين خطراً بأقلها وأقربها إلي الخضوع والاستسلام ..

ومعركة قريش لا تزال هي المعركة الرئيسية في جزيرة العرب ، فليوجه إليها كل همه ، وليهدىء من عداء اليهود بقدر ما يستطيع ، حتي تنتهي المعركة الكبري مع قريش بالنصر ، ولكن اليهود قوم لا يرتاحون إلي السلم والعيش الكريم ، فما كاد عظماء بني النضير يجلون عن ديارهم — عقوبة لهم علي غدرهم — حتي أخذوا يثيرون قريشاً وقبائل العرب ضد الرسول وصحبه ، وكان من أثر ذلك غزوة الأحزاب التي تجمعت فيها قريش وغطفان ومرة وأشجع وبنو سليم وبنو أسد ، وهاجموا المدينة في عشرة آلاف محارب ، وكانت غزوة الأحزاب ، وتحركت بنو قريظة وهم يهود المدينة نفسها — فنقضوا الميثاق وأبدوا العداء للرسول ، وظنوا أن هذه المعركة قاضية علي المسلمين في المدينة فأعلنوا الحرب وانحازوا إلي الأحزاب ، وهنا تشتد المعركة علي المسلمين ، ويصبح أهل المدينة في قلق شديد علي ذراريهم ونسائهم ، خوفاً من بني قريظة الذين أعلنوا عداءهم ، ويفكر الرسول في تفريق كلمة الأحزاب بأن يعمل علي انسحاب غطفان من المعركة لقاء أن يعطيها ثلث ثمار المدينة ، ويتألم المسلمون من ذلك ، ويتدارك الله رسوله وصحبه بالعناية الإلهية ، فيسلم (نعيم بن مسعود) من غطفان وهو صديق قريش واليهود ، فيعمل علي التفرقة بينهم ، ويغرس في نفوس كل من قريش واليهود عوامل الريبة والحذر بعضهم من بعض ، فتختلف كلمة الأحزاب ، ويرسل الله ريحاً باردة في ليلة شديدة الظلام ، فتولى قريش وحلفاؤها ، لا تلوي علي شيء ، وينبلج الصباح عن فرار قبائل العرب في الظلام ، ويظل الرسول

وجهاً لوجه مع يهود بني قريظة الغادرين في أحرج الساعات . ويتم القضاء عليهم بما حكم به حليفهم سعد بن معاذ ، من قتل الرجال ، وسبي النساء والأطفال ..

مـع اليهـــود الآخـــرين :

وانتظر الرسول حتي تم صلح الحديبية ، وأمن شر قريش ، فاتجه إلي تصفية قضية اليهود الباقين حول المدينة فأنهي علاقته مع يهود فدك ، بحقن دمائهم ومغادرة ديارهم ، وترك أموالهم ، ثم انتهي من يهود وادي القري ويهود خيبر ، فتغلب عليهم ، وفرض عليهم الجزية ، وجردهم من قوتهم الحربية .. وبذلك انتهي من معركة اليهود ، دون أن يخوض معهم جميعاً معركة واحدة ، ودون أن يحاربهم وقريشاً في وقت واحد .

وهذه إحدى العبر في تاريخ الرسول السياسى والعسكرى ، دلنا علي براعته وتوفيقه في الوصول إلي النصر ، دون أن يثير قوي الأعداء عليه جميعاً ، مادام يستطيع أن يفرق بينهم — كما في غزوة الخندق — أو أن يضربهم الواحد بعد الآخر كما حصل في تصفية قضية اليهود في جزيرة العرب .

فـي صــلح الحديبيـة :

وأمامنا مثل آخر يدل علي مرونة الرسول وبراعته وتفضيله المصلحة البعيدة المدي علي المصلحة المؤقتة التي يمكن أن تكتسب

بالعاطفة ، ولكنها تفوت كثيراً من المكاسب السياسية . ففي صلح الحديبية كان الرسول لا يريد القتال بل يريد الطواف في الكعبة ، فلما أصرت قريش علي المنع صمم الرسول علي قتالهم ، ووجد من المسلمين كل استعداد للفداء ، وبايعه المسلمون بيعة الموت المشهورة ببيعة الرضوان ، حتى إذا أبدت قريش رغبتها في الصلح على الشروط المعروفة ، وهي شروط لم يرضها المسلمون أول الأمر ، بل رأوا فيها ضعفاً وذلة ، ولكن القائد الرسول الذي يمتد بصره إلي ما لا يمتد إليه بصر جنوده المؤمنين ، أصر علي قبول الشروط ، فلم يجد المسلمون بدا من القبول ، وتبين فيما بعد أن هذه الشروط كانت سبباً من أسباب تعجيل النهاية المرتقبة للوثنية في جزيرة العرب ، وأن صلح الحديبية كان الخطوة الأولي لفتح مكة واستسلام الوثنية العربية استسلاماً لا قيام لها من بعده أبداً .

هنا يجب أن يذكر الدعاة أن علي القائد أن يجنب الدعوة المتاعب الكثيرة بأقل التضحيات ، وأن يخضع للظروف مع حسن الاستعداد والاستفادة ، كما فعل رسول الله حين رأي إصرار قريش علي أن لا يدخل الرسول ذلك العام مكة أبداً ، فرجع عنها هو وصحبه بعد أن أوشكوا على وصولها ، وكان قادراً على أن يدخلها عنوة واقتداراً ، ولكن المعركة يومئذ ستكلف المسلمين كثيراً من التضحيات ، وما كسبه الإسلام من صلح الحديبية ، كان أعظم سياسياً ودينياً وعسكرياً مما كان يكسبه لو دخل المسلمون آنئذ مكة عنوة ، وما هو إلا انتظار سنتين بعد ذلك حتي دخل الرسول مكة فاتحاً ، وقد

استسلمت قريش ، ثم دخلت فى دين الله أفواجاً .

إن علي القائد ألا يضيق ذرعاً بحماسة جنوده ، كما تحمل الرسول شدة عمر ومعارضته يوم صلح الحديبية ، وعلي الجنود أن لا يشقوا عصا الطاعة حين يحزم القائد أمره .

هذا درس كبير من دروس السيرة النبوية ، ما أحرانا اليوم أن نذكره قادة وجنوداً ، والدعوة تمر في أخطر مراحلها والشبه كبير بين ظروفها الحاضرة وبين ظروفها يوم صلح الحديبية ، وصلي الله علي القائد الأكبر الذي قال عز وجل فيه ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾[1] .

* * * *

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

أبــو بَكــر الصِّـــدّيـق

« رضي الله عنه »

تـاريخـه فـي سـطور :

١ ـــ ولد بعد مولد رسول الله ﷺ بعامين وبضعة أشهر .

٢ ـــ كان أول مؤمن بالرسول من الرجال البالغين .

٣ ـــ كان هو وحده رفيق رسول الله في الهجرة إلى يثرب ، وصاحبه في الغار .

٤ ـــ أصهر إليه رسول الله ﷺ وكان أبا أم المؤمنين عائشة .

٥ ـــ كان أول خليفة بعد رسول الله ﷺ .

٦ ـــ تولي الخلافة عام ١٠ من الهجرة واستمر فيها سنتين وثلاثة أشهر .

٧ ـــ كان عمره ٦٣ عاماً مثل عمر النبي ﷺ حين توفي .

٨ ـــ دفن مع رسول الله ﷺ في غرفة عائشة .

٩ ـــ من أكبر فضائله الخالدة في التاريخ أنه جمع المصحف بعد أن كان أشتاتاً في الرقاع ، ومحفوظاً في الصدور .

١٠ ـــ تزوج في الجاهلية : قَتْلَة وأم رومان ، وفي الإسلام : أسماء وحبيبة ، وتوفي وكانت حبيبة حاملًا .

١١ ـ كان لأبي بكر من الولد ستة : ثلاثة بنين وثلاث بنات أما البنون فهم : عبد الله ، وعبد الرحمن ، ومحمد ، وأما البنات فهن : أسماء وعائشة أم المؤمنين ، وأم كلثوم ..

اسـمـه :

هو عبد الله بن عثمان أبي قحافة العتيق الصدّيق . أما العتيق فهو الجميل ، الغاية في الجود والخير ، وأما الصديق فهو الذي يصدقه الناس ولا يكذبونه ، والذي أسرع إلي تصديق الرسول في كل أمر يخبر به الرسول عن ربه ..

جاهليتـه وصفتـه :

كان في الجاهلية من أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها من خير أو شر ، تاجراً موفقاً ذا خلق وفضل ، محبباً في قومه لم يشرب خمراً ، ولم يعبد صنماً ، ولم يؤثر عنه ما يثلم شرفه أو ينتقص مروءته .

وكان أبيض نحيفاً ، قليل لحم الوجه ، غائر العينين ، ناتيء الجبهة ، كثير شعر الرأس ، منحني القامة .

إسـلامـه :

كان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل الرسالة ، فلما أكرم الله رسوله برسالته ، كان أول من دعاهم الرسول للإسلام أبو بكر ، فما لبث أن أسلم ، غير متردد ولا متلكيء . وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وكانت منه عنده كبوة

ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ما غكم (تلبث) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه »[1] .

وظل مع رسول الله ﷺ يتعاون معه في مختلف مراحل الدعوة ، كأنصح ما يكون مؤمن لربه ولنبيه ولدينه . تحمل من الأذي ما حمله علي أن يكون صاحبه في الهجرة ، ورفيقه في الغار ، وبذل في سبيل الإسلام من ماله ما دعا رسول الله ﷺ إلي أن يقول « ما نفعني مال قط كما نفعني مال أبي بكر »[2] . واستمر يؤيد رسول الله وينصره حتي توفي رسول الله ﷺ وهو أقرب الصحابة إلي قلبه ، وأجدرهم في نظره بخلافته من بعده . وحسبك فيه شهادة رسول الله العظيم « إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته »[3] ..

في خلافته :

لما بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة ، كان أمر المسلمين مضطرباً لوفاة الرسول ، وارتداد بعض قبائل العرب ، وامتناع بعضها عن الخضوع لأحد بعد رسول الله ﷺ ، كما كانت الروم تتأهب لغزو الحجاز ، وكان جيش أسامة ـــ وهو الذي أعده

(١) سيرة ابن هشام .
(٢) أخرجه أحمد وأبو حاتم وابن ماجه وقال الترمذي : حسن غريب .
(٣) البخاري : ٤/٥ ، ومسلم رقم (٢٣٨٢) والترمذي رقم (٣٦٦١) ومعني (من أمن الناس علي) : أي أسمح بماله وأبذله ولم يرد به معني الامتنان .

الرسول قبل وفاته لرد عدوان الروم ــ واقفاً علي أبواب المدينة ينتظر الأمر بالمسير ، فقام أبو بكر بعبء الخلافة علي خير ما يقوم به رجل في التاريخ .

وقف من حروب الردة وقفة الحازم المصمم علي تأديب المرتدين والخارجين علي طاعة الدولة ، ومع أن الصحابة جميعاً كانوا لا يرون محاربة هؤلاء ، فإن أبا بكر ظل وحده مصمماً علي قتالهم ، حتي شرح الله صدور الصحابة لذلك ، فساروا علي بركة الله يثبتون الإسلام من جديد فى ربوع الجزيرة ، وكان نصر الله عظيماً ، وكان القضاء التام علي الفتنة وهي في مهدها .

ــ وأنفذ جيش أسامة كما أراد رسول الله ﷺ ، فكان بدء الفتوحات الميمونة في نشر الإسلام وتحرير الشعوب ..

ــ وسار في المسلمين سيرة ورع عن أموالهم ، وزهد في دنياهم ، وسهر علي مصالحهم ، وإشفاق علي ضعفائهم ، وشدة علي أقويائهم ، وكان دستوره في الحكم هو الخطاب الذي ألقاه عقب توليه الخلافة :

« إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتي آخذ له الحق ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتي آخذ منه الحق ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء .

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »[1] ...

أبـرز نواحـي عظمتـه :

لأبي بكر رضي الله عنه نواح متعددة من العظمة ، قد يشارك في كثير منها كثير من عظماء الصحابة ، ولكن ما يمتاز به عن كثير منهم خصال جعلته في الذروة من عظماء الإسلام وأهمها :

١ ـ الإيمـان   ٢ ـ التضحية .

٣ ـ الحزم والعقل   ٤ ـ التواضع والعفة .

١ ـ الإيمان بالله ورسـوله :

وهو إيمان حمل الصديق علي أن يكون أول من أسلم ، وعلي أن يصدّق بكل ما يقوله رسول الله ﷺ ، من غير شك ولا تردد ، وانظر ما أروع موقفه من حادث الإسراء والمعراج ، حين قص النبي ﷺ علي مشركي قريش وعلي صحابته ما حدث له في تلك الليلة ، فارتد من ارتد من ضعفاء الإيمان ، وهزئت قريش برسول الله ﷺ أيما هزء ، وجاء أبو جهل إلي أبي بكر لينظر ماذا يكون موقفه من هذه الحادثة العجيبة ، فإذا بأبي بكر يرد علي رئيس الضلالة في قريش بهدوء المؤمن الواثق بنبيه ، المطمئن إلي صدق رسوله : أوقد قال

(١) قال الطنطاوي في كتابه (أبو بكر الصديق) ص ١٤٦ : قال المحب الطبري : هذا الحديث في البخاري ، ولكنه منقطع ومعناه مستوفي .

ذلك ؟ فيقول أبو جهل : نعم ! فيقول الصديق : لئن قال ذلك لقد صدق . قال أبو جهل ومن معه : تصدقه أنه ذهب الليلة إلي بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟ قال أبو بكر : إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، من خبر السماء في غدوة أو روحة . ثم ذهب إلي النبي ﷺ يستمع منه إلي حديث الإسراء ويصدقه ويقول : أشهد إنك لرسول الله[1] ...

إنه إيمان يبلغ الذروة ، فلا عجب أن يبلغ صاحبه به ذروة العظمة بين عظماء الإسلام .

٢ ـ تضحيته بنفسه وبماله في سبيل الدعوة :

وهو نتيجة محتمة لإيمان أبي بكر ، وما دخل الإيمان قلب مؤمن إلا حمله أول ما يحمله علي البذل والتضحية والفداء فكيف إذا كان إيماناً كإيمان أبي بكر الصديق ؟ ضحي أبو بكر بنفسه دون رسول الله حين دفع عنه قريشاً في فناء الكعبة وهي تريد أن تخنقه ، فما كان من قريش إلا أن مالت علي أبي بكر تصفعه وتضربه حتي حمل مغشياً عليه إلي بيته ، لا يتبين أنفه من خده أو عينيه ، فلما أفاق كان أول ما سأل عنه : ماذا فعل برسول الله ﷺ ؟[2] .

وضحي بنفسه حين هاجر معه وقريش تجدُّ في طلبه تريد الفتك

---

(١) متفق عليه .

(٢) الزيني دحلان ــ السيرة النبوية : ١٠٧/١ ــ طبع المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ .

به ، وانظر ما أروع هذا الموقف حين يقول أبو بكر للرسول وقد وقفت قريش علي باب الغار : يارسول الله : لو أن أحدهم نظر إلي ما تحت قدميه لرآنا .. ولكن الرسول علم كيف يطمئن من روع صديقه بالكلمة الخالدة : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

وضحي بماله كله في سبيل الدعوة . تقول عائشة رضي الله عنها : أنفق أبو بكر علي النبي ﷺ أربعين ألفاً ، ولما طلب الرسول من الصحابة تجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك ، تقدم الصحابة بمال وجاء عثمان بمال كثير ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء أبو بكر بكل ماله ، فقال له الرسول : ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله[1] .

بخ بخ يا أبا بكر .. ما أروع إيمانك بالله ورسوله ، وما أروع بذْلَكَ في سبيل الله ورسوله وشريعته ؟

٣ ـ عقله الكبير وحزمه عند الشدائد :

وحسبك من عقله أنه في الجاهلية أبي أن يسجد للأصنام ، وقومه يتهافتون علي عبادتها ، وأبي أن يشرب الخمر ، وقومه يتمادحون في شربها وإراقتها ... لقد أدرك بعقله الكبير أن عبادة الأصنام سخف

---

(١) استفاض مثل هذا الخبر في كتب السنة والتاريخ ، انظر البخاري ، والإصابة والبداية ، والطبري وسواها لتري العجب العجاب من افتدائه قائده رسول الله بما ملك من مال ووقت وجهد كما ورد عند أبي داود رقم (١٦٧٨) والترمدي رقم (٣٦٧٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وضلالة ، وأن شرب الخمر أذي وانحلال .

وحسبك من حزمه ، موقفه يوم مات النبي ، ويوم قامت حروب الردة . لقد جزع الصحابة لوفاة رسول الله جزعاً بالغاً ، حتي خرس بعضهم ، وأقعد بعضهم ، ونادي عمر : إن الرسول لم يمت : وسيعود . إلا أن أبا بكر أعلن أن رسول الله مات كما يموت الناس جميعاً ، وردَّ عمرَ عن قوله ، وهدّأ من غليان النفوس ، ورد السكينة إلي القلوب ، وذكر المؤمنين بقول الله تبارك وتعالي : ﴿ **وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾[1] .

وأما موقفه من حروب الردة ، فهو أعظم ما يؤثر عن الرجال من الحزم المصمم ، والإرادة الحازمة في مواقف الشدة . ولولا أن ثبت الله قلب أبي بكر علي الحق ، وآتاه حزم أولي العزم من الأنبياء والرسل ، لطوحت الفتنة بصرح الإسلام الفتي ودولته .. ومن هنا كان أبو بكر المؤسس الثاني للإسلام بعد رسول الله ﷺ .

٤ ــ تواضعــه وعفتــه :

والعظيم مثل أبي بكر أبعد من أن يغره الملك ، وتنأي به الرئاسة عن آداب الإسلام وأخلاقه ، ظل في الخلافة كما كان قبلها ، ليناً سهلًا رحيماً بالمسلمين ، غيوراً عليهم . وحسبك من هذه القصة التالية مثلًا علي تواضع أبي بكر في خلافته :

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

كان أبو بكر يعتاد أن يحلب الغنم للنسوة العاجزات ، وللفتيات القاصرات كل صباح ، فلما ولي الخلافة قالت بنات الحي : الآن : لا يحلب لنا أبو بكر أغنامنا . فبلغ ذلك أبا بكر فقال : بلي والله لأحلبن لكن كما كنت أصنع من قبل ، وأرجو ألا يغيرني الله عن خلق كنت أعتاده قبل الخلافة » .

هذه والله هي العظمة .. وهذا لعمر الله هو العظيم .

ومات أبو بكر ولم يخلف متاعاً ولا مالا ، ولم يستطب من مال الخلافة إلّا ما أجازه له المسلمون ، بل لقد اشتهت زوجته حلواً فلم تجد ثمنه عنده ، فقالت زوجته : سأقتصد من نفقتنا اليومية حتي أجمع ثمن الحلوي ، واقتصدت من نفقة بيتها ما استطاعت معه أن تشتري ما تريد من الحلوي . فلما بلغ ذلك أبا بكر قال : لا جرم أننا أخذنا من بيت مال المسلمين ما يزيد عن حاجتنا ، ثم أنقص من راتبه بمقدار ما استطاعت زوجته أن تقتصده .

إنه لموقف يطأطيء فيه عظماء الدنيا رءوسهم احتراماً لصاحبه وإكباراً .. إنه لموقف العظمة التي تتسامي عن أهواء النفس وشهواتها وحاجاتها .. لتذكر حق الأمة ومطالبها ، وتحفظ لها حقوقها وأموالها .

يرحمك الله أيها الصديق الأكبر وطبت حياً وميتاً ..

من كلماتــه الخالــدة :

١ ــ أيها الناس ! أإن كثر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن هذا الدين علي الأديان كلها ، ولو كره المشركون ، قوله الحق ، ووعده الصدق ، ﴿ **بل نقذف بالحق علي الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[1] .

٢ ــ أيها الناس ! إني أوصيكم بتقوي الله العظيم في كل أمر ، وعلي كل حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ؛ فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، من يكذب يفجر ، ومن يفجر يهلك ، وإياكم والفخر ، وما فخر من خلق من التراب وإلي التراب يعود ؟! .

٣ ــ إلا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجد والقصد ، فإن القصد أبلغ . إلا أنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن في كتاب الله من الثواب علي الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به . هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة ...

* * * *

---

(١) الأنبياء : ١٨ ــ نقذف بالحق : نرمي به ونورده ــ فيدمغه : يمحقه ويدحضه . زاهق : ذاهب مضمحل ــ الويل : الهلاك ، أو العذاب ، أو الخزي .

مَعَ أبى بَكر الصّدّيق(*)

« رضى الله عنه »

الحياء من الله :

يا معشر المسلمين : استحيوا من الله عز وجل ، فوالذى نفسى بيده ، إنى لأظل حين أذهب إلى الغائط فى الفضاء متقنعاً استحياء من ربى عز وجل[1] .

خطبة خليفة :

أوصيكم بتقوى الله ، وإن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : **﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾**[2] . ثم اعلموا - عباد الله - أن الله تعالى قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى ، وهذا كتاب الله فيكم

(*) الشهاب : ٢٢ .

(١) حلية الأولياء : ٣٤/١ . الغائط : المطمئن من الأرض ، وكان الرجل إذا أراد أن يقضى الحاجة أتى الغائط وقضى حاجته .

(٢) الأنبياء : ٩٠ - رغبا ورهبا : رجاء فى الثواب ، وخوفا من العقاب .

لا تفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره ، فصدقوا قوله ، وانتصحوا كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنما خلقكم للعبادة ، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ، ثم اعلموا عباد الله ، أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه ، فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل لله فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله فسابقوا فى مهل آجالكم ؛ قبل أن تنقضى آجالكم ، فيردكم إلى أسوإ أعمالكم ، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، ونسوا أنفسهم . فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، النجاء النجاء. إن وراءكم طالبا حثيثاً، أمره سريع (يعنى الموت)[1] .

لا خير إلا بالطاعة :

إن الله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه سوءاً ، إلا بطاعته واتباع أمره ، وأنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة[2] .

وصية خليفة لخليفة :

لما حضر أبا بكر الموت دعا عمر فقال له : اتق الله يا عمر ، واعلم أن لله عز وجل عملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا، وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة

---

(١) الحلية : ١/٣٥ .

(٢) الحلية : ١/٣٦ .

باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً ، وإن الله ذكر أهل الجنة ، فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأخاف أن لا ألحق بهم ، وإن الله تعالى ذكر أهل النار ، فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ورد عليهم أحسنها ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ، ليكون العبد راغبا راهبا ، لا يتمنى على الله ، ولا يقنط من رحمته عز وجل ، فإن أنت حفظت وصيتى ، فلا يكن غائب أحب إليك من الموت - وهو آتيك - وإن أنت ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت - ولست بمعجزه[1] .

الغرور بالنعمة :

لبست عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ثوباً جديداً ، فجعلت تنظر إليه وتعجب به ، فقال لها أبو بكر : ما تنظرين ؟ إن الله ليس بناظر إليك ؟! قالت : ومم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعت عائشة ثوبها وتصدقت به . فقال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك ..[2] .

هذا ولا يلتبس عليك الأمر بين التحدث بنعمة الله ، كما ورد فى الآية والحديث ، وبين العجب بالنعمة ، فإن التحدث بها إقرار لله

---

(١) الحلية : ٣٦/١ .

(٢) الحلية : ٣٧/١ .

بالفضل والمنة ، والعجب بها غرور يؤدى إلى بطر الحق ، وجحود النعمة ، والاستعلاء على الناس .

الورع الصادق :

كان لأبى بكر مملوك يغل عليه (أى يعمل ويأخذ من أجره كل يوما قدرا معينا) فأتاه ليلة بطعام ، فتناول منه لقمة ثم أخبره المملوك أنه أخذه أجرا على كهانة كان قد رقاها فى الجاهلية فقال أبو بكر : إن كدت لتهلكنى . وأدخل يده فى حلقه ، فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بتست من ماء ، فجعل يشرب ويتقيأ ، حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل جسد نبت من سحت (حرام) فالنار أولى به »[1] فخشيت أن ينبت شىء من جسدى بهذه اللقمة ...[2] .

إخلاص النية :

ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقَصْد ، فإن القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له . ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله ، لما

---

(١) رواه البيهقى .

(٢) الحلية : ٣١/٢ .

ينبغى للمسلم أن يحسب أن يخص به، هى التجارة التى دل الله عليها، ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة[1] .

احذر نفسك :

إن لكل نفس شهوة ، فإذا أعْطِيَتْها تمادت فى غيرها[2] .

أحسن زادك :

أوصى أبو بكر بلالا حين توجه للجهاد فقال له : اعمل صالحا ، وليكن زادك من الدنيا ما يذكرك الله ما حييت ، ويحسن لك به الثواب إذا توفيت[3] .

اتق واصدق :

أكْيسُ الكيس التقوى ، وأحمق الحمق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة[4] .

لا خير فيمن :

لا خير فى قول لا يراد به وجه الله تعالى ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله عز وجل ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم[5] .

---

(١) الطبرى : ٥٨٧/٢ . (٢) الخراج لأبى يوسف .

(٣) أبو بكر للطنطاوى عن الخميس للديار البكرى : ٢٧٨ .

(٤) الطنطاوى عن تهذيب ابن عساكر .

(٥) الحلية : ٣٦/١ .

عمر بن الخطاب(*)

« رضى الله عنه »

تاريخه فى سطور

١ – ولد قبل بعثة الرسول بثلاثين سنة ..

٢ – كان عدد المسلمين يوم أسلم تسعة وثلاثين ..

٣ – كان صهر رسول الله وأبا أم المؤمنين حفصة[1] ..

٤ – كان عمره يوم الخلافة خمسا وخمسين سنة ..

٥ – كانت مدة الخلافة عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ..

٦ – فتحت فى عهده بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وأذربيجان ونهاوند وجرجان .

٧ – بنيت فى عهده البصرة والكوفة ..

٨ – أول من أرخ بالهجرة، ودون الدواوين، وصلى بالناس التراويح..

٩ – دفن مع رسول الله وصاحبه أبى بكر فى غرفة عائشة ..

١٠– تزوج فى الجاهلية ، قريبة أم كلثوم بنت جرول وفى الإسلام زينب بنت مظعون ، وأم كلثوم بنت على رضى الله عنه ،

(*) الشهاب ١٠ .

(١) الأصهار : أهل بيت المرأة ، عن الخليل . قال : ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان جميعاً .

وجميلة بنت ثابت ، وأم حكيم بنت الحارث ، وعاتكة بنت زيد[1] وقد توفى وبعضهن فى عصمته ..

١١- كان له من الولد اثنا عشر : ستة من الذكور : وهم عبد الله وعبد الرحمن وزيد وعبيد الله وعاصم وعياض وست من الإناث وهن : حفصة ورقية وفاطمة وصفية وزينب وأم الوليد .

اسمه ولقبه :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ، يجتمع نسبه مع النبى ﷺ فى كعب بن لؤى ، فهو قرشى من بنى عدى .

وكنيته أبو حفص ، والحفص هو شبل الأسد ، كناه به النبى ﷺ يوم بدر . ولقبه الفاروق[2] ، لقبه بذلك النبى ﷺ يوم إسلامه ، فأعز الله به الإسلام ، وفرق بين الحق والباطل .

صفته وبيئته :

نشأ فى مكة عاصمة العرب الدينية ، من بيت عرف بالقوة والشدة ، كما كانت إليه السفارة فى الجاهلية ، إذا وقعت بين قريش وبين غيرها حرب ، بعثته سفيرا يتكلم باسمها ، وإن نافرهم منافر ،

---

(١) وسبيعة بنت الحارث ، وهى أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية فلما نزلت آية الامتحان ، امتحنها النبى ﷺ ورد على زوجها مهر مثلها ، وتزوجها عمر . انظر أخبار عمر للطنطاويين ص ٤٦٩ .

(٢) الرياض النضرة : ١٨٨/١ .

أو فاخرهم مفاخر ، بعثوا به منافراً عنهم ، ومفاخرا بهم .

وكان طويلا بائن الطول ، إذا مشى بين الناس أشرف عليهم كأنه راكب، أسمر، مشربا بحمرة، حسن الوجه، غليظ القدمين والكفين، أصلع خفيف العارضين ، جلدا شديد الخلق ، ضخم الجثة ، قوى البنية ، جهورى الصوت . قالت فيه الشفاء بنت عبد الله : كان عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا .

جاهليته :

كان من أنبه فتيان قريش وأشدهم شكيمة ، شارك فيما كانوا يتصفون به من لهو وعبادة . فشرب الخمر ، وعبد الأوثان واشتد بالأذى على المسلمين فى سنوات الدعوة الأولى ، وكان يعرف القراءة والكتابة .

إسلامه :

كان عمره يوم بعث النبى ﷺ ثلاثين سنة ، أو بضعا وعشرين سنة ، على اختلاف الروايات . وقد أسلم فى السنة السادسة من البعثة ، فى قصة مشهورة فى السيرة النبوية . ومنذ أسلم انقلبت شدته على المسلمين إلى شدة على الكافرين ، ومناوأة لهم ، فأوذي وضرب ، وقد سبقه إلى الإسلام تسعة وثلاثون صحابيا فكان هو متمما للأربعين ، وقد استجاب الله به دعوة رسوله ﷺ إذ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : أبى جهل بن هشام

أو عمر بن الخطاب »[1] فكان إسلامه دون أبى جهل ، دليل على محبة الله له ، وكرامته عنده .

صحبته للرسول :

كان فى صحبته للرسول ﷺ مثال المؤمن الواثق بربه ، المطيع لنبيه ، الشديد على أعداء الإسلام ، القوى فى الحق ، المتمسك بما أنزل الله من أحكام . شهد المعارك كلها مع رسول الله ﷺ ؛ وأثنى عليه الرسول بما يدل على عظيم منزلته عنده ، وبلائه فى الإسلام . ومما ورد فيه قوله : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وفرق الله به بين الحق والباطل »[2] .

وكان ذا رأى سديد ، وعقل كبير ، وافق القرآن فى ثلاث مسائل قبل أن ينزل فيها الوحى .

كان من رأيه تحريم الخمر فنزل تحريمها بقوله تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾[3] .

وكان من رأيه عدم قبول الفداء من أسرى بدر ، فنزل القرآن

---

(١) الترمذى : ٢٩٢/٢ وقال : حسن صحيح ، وشرح المواهب : ٣٢٦/١ وقال : صححه ابن حبان . والرياض : ١٩٧/١ وقال : أخرجه أحمد ، وصححه أبو حاتم .

(٢) أخرجه الترمذى : رقم ٣٦٨٣ وصححه ، وأبو داود : رقم ٢٩٦٢ .

(٣) المائدة : ٩٠ - الأنصاب : حجارة حول الكعبة يعظمونها ، جمع النصب - الميسر : القمار - الأزلام: قداح الاستقسام فى الجاهلية جمع الزلم - رجس : خبيث ، قذر ، نجس.

مؤيدا رأيه ، كما أشار على النبي باتخاذ الحجاب على زوجاته أمهات المؤمنين فنزل القرآن بذلك .

ولما توفى رسول الله ﷺ جزع لذلك جزعا شديدا ، حتى زعم أن رسول الله لم يمت ، وأنه ذهب يناجي ربه ، وسيعود إلى الناس مرة أخرى .. وأعلن أنه سيضرب كل من زعم أن رسول الله ﷺ قد مات .

وهكذا توفى رسول الله ﷺ وهو يمثل الشدة على أعداء الله من مشركين ومنافقين . وكان إذا رأى أحدا أساء إلى النبي ﷺ بقول أو فعل ، قال لرسول الله : دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق .. وقد شهد له رسول الله بالجنة ، وهو أحد العشرة المبشرين بها[1] ، وحسبه شرفا ومكانة عند الله أن رسول الله توفى وهو عنه راض .

فى خلافة أبى بكر :

وكان عمر فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه وزير صدق ، ومساعد خير ، به جمع الله القلوب على مبايعة أبى بكر يوم اختلف الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة ، وكان إلهاما موفقا من الله أن بادر عمر إلى مبايعة أبى بكر ، فبادر الأنصار والمهاجرون بعد ذلك إلى البيعة . ولقد كان أبو بكر أجدر الصحابة بملء هذا المكان الخطير ، بعد رسول الله ﷺ ، بل لقد علم الصحابة جميعا ، أن الرسول حين

---

(١) جامع الأصول : ٥٥٨/٨ وما بعدها .

استخلف أبا بكر على الصلاة إنما أشار بذلك إلى أهليته للخلافة العامة ، ولكن فضل عمر فى مبايعة أبى بكر ، إنما كان فى حسم مادة الخلاف الذى كاد يودى بوحدة المسلمين ، ويقضى على دولة الإسلام الناشئة .

وكانت شدة عمر فى حياة النبى عليه السلام ، هى فى حياة أبى بكر .. فأبو بكر كان رجلا حليما تملأ الرحمة برديه ، ويغلب الوقار والعفو على صفاته كلها ، فكان لابد من رجل قوى الشكيمة كعمر ، يمزج حلم أبى بكر بقوة الدولة ، وهيبة السلطان .. فكان عمر هو الذى قام هذا المقام ، واحتل تلك المنزلة . ولذلك كان أبو بكر يأخذ برأيه ، ويعمل بقوله . أمر أبو بكر يوما بأمر فلم ينفذه عمر ، فجاءوا يقولون لأبى بكر : والله ما ندرى : الخليفة أنت أم عمر ؟ فقال أبو بكر : هو إن شاء !..

وتلك لعمرى نفحة من نفحات العظمة الإسلامية التى أرادها الله بشير خير للمسلمين وللعالم بعد وفاة الرسول .. عمر يقول لأبى بكر يوم السقيفة : أنت أفضل منى ، وأبو بكر يجيبه بقوله : ولكنك أقوى منى .. فيقول عمر لأبى بكر : إن قوتى مع فضلك .. وبذلك تعاونت العظمتان فى بناء صرح الدولة الإسلامية الخالدة .. فضل أبى بكر وحلمه وعقله وحزمه ، مع قوة عمر وبأسه وشدته وهيبته .

عمر فى الخلافة :

ويتولى عمر الخلافة ، وهى أشد ما تكون حاجة إلى رجل مثله ،

المسلمون يشتبكون فى حروب طاحنة مع فارس والروم ، والبلاد الإسلامية التى فتحت تحتاج إلى ولاة أتقياء أذكياء ، يسيرون فى الرعية سيرة عمر فى حزمه وعفته وعبقريته فى التشريع والإدارة ، والعرب الفاتحون قد أقبلت عليهم الدنيا فهم منها على خطر عظيم ، أن يركنوا إليها ، ويملوا حياة الجهاد والكفاح ، ويعبوا من لذائذها وزينتها وترفها ..

تولى عمر الخلافة فسجل أروع الآثار فى تاريخ الإسلام :

ــ أتم ما بدأ به أبو بكر من حرب فارس والروم ، فانتهت باستيلاء المسلمين على مصر والشام والعراق ومملكة فارس .

ــ نظم جهاز الدولة ، فدون الدواوين ، وفرض الأعطيات ، وجبى خراج الأراضى المفتوحة بأعدل طريق ، وأقوم سياسة ، وواجه حاجات الدولة الإسلامية فى الأنظمة والقوانين ، بأعظم عبقرية تشريعية عرفها تاريخ الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ .

ــ حكم البلاد المفتوحة بيد تجمع بين القوة والرحمة ، وبين الرفق والحزم ، وبين العدل والتسامح ، فكان حكم عمر مضرب الأمثال فى ذلك ، فى تواريخ الأمم كلها ، وقلَّ أن عرفت الإنسانية حاكما مثله خلده التاريخ بعدله ورحمته .

أبرز نواحي عظمته

١ - الدفاع عن العقيدة :

فلقد كان عمر شديد الوطأة على المسلمين حين كان يعتقد بطلان

دينهم ، وأنهم مرتدون عن عقيدته وعقيدة العرب يومئذ ، فما كان يترك وسيلة للدفاع عن عقيدته الوثنية ، وإيذاء المسلمين فى دينهم الجديد إلا سلكها ، حتى إذا أسلم عمر ، بدا فى حماسة لعقيدته الجديدة ، أشد مما بدا فيه فى الدفاع عن عقيدته الموروثة ، وقف بعد إسلامه على رءوس قريش ، وهم فى فناء الكعبة ، ثم أعلن بصوته الجهورى : إنه قد صبأ عن دينه القديم إلى الإسلام .

وكان المسلمون يستخفون فى إسلامهم - فسار إليه الناس يضربونه ويضربهم ، حتى قام إليه خاله أبو جهل ، فأجاره ، فانكشف الناس عنه . ولكنه رأى المسلمين يُضربون فقال : ألا يصيبنى ما يصيب المسلمين ؟ ثم جاء إلى خاله ، فرد عليه جواره ، فعاد الناس إليه يضربونه ويضربهم ، حتى أعز الله الإسلام .

٢ - شدته فى الحق :

لم يكن يرى فى سلوك طريق الحق هوادة ولا لينا ، ولا يرى أن يجامل فى سبيله صديقا ولا قريبا ..

كان رأيه فى أسرى بدر أن تُقطع رقابهم ، وهم أشراف قريش وزعماؤها ، لما كان يرى فى ذلك من إرهاب الشرك وأهله ، وعقوبة أعداء الله وأعداء رسوله .

ولم يرض يوم صلح الحديبية بالشروط التى وافق عليها الرسول ﷺ ورأى فيها مهانة للمسلمين وضعفا ، فأتى رسول الله فقال له : يارسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ! قال بلى قال : أليس

قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى ؟! قال : فعلام نعطى الدنيّة فى ديننا ؟ أنرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال الرسول : يابن الخطاب ؟ إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا . فانطلق عمر إلى أبى بكر ، فقال له مثل ما قال للرسول ، فأجابه أبو بكر بمثل ما أجابه الرسول ﷺ .

وغضب مما فعل خالد بن الوليد ، حين تزوج امرأة مالك ابن نويرة فى حروب الردة ، وأوقع فى قومه القتل ، مع إعلانهم أنهم على الإسلام ، وما زال يحرض أبا بكر على الاقتصاص من خالد وعقوبته ، حتى أسكته أبو بكر بقوله : اكفف لسانك عنه يا عمر ، تأوَّلَ خالد فأخطأ ، وإنى لن أغمد سيفا سلّه الله على المشركين .

٣ - خضوعه للقيادة :

ومع ما كان عليه من الشدة فيما يعتقد أنه حق ، فلقد كان شديد الخضوع للقيادة حين تحزم أمرها ، ولو كان مخالفا لرأى عمر . ومع ما رأيتموه فى موقف عمر يوم صلح الحديبية من شدة وغضب ، فلقد خضع أخيرا لقائده رسول الله ﷺ ، أو رضى بما رضى ...

وقولوا مثل ذلك فى موقفه من خالد ، فما هو إلا أن رأى أبا بكر يعذر خالدا فيما صنع ، حتى كفَّ عنه لسانه وسكت . وها نحن أولاء نراه يجادل أبا بكر فى حرب المرتدين ، هو يرى أن لا يحاربهم المسلمون ، وأبو بكر يرى وجوب محاربتهم ، فلما رأى عمر تصميم قائده أبى بكر على القتال ، كان أول من أطاع ولبّى .

٤ - الرحمة بالشعب :

ومع هذه الشدة التى رأيتموها من عمر فى الحق ، كانت له رحمة بالشعب ، من ضعفاء ، وفقراء ، وعطف على الرعية ، قلَّ أن نجد له مثيلا فى التاريخ . ولما خاف المسلمون من أن يشتد عليهم فى ولايته ، خطب فيهم فكان مما قاله : اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت[1] ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يعتدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .

تلك هى رحمة عمر ، رحمة القوى الحازم العادل ، بمن يستحق الرحمة ، رحمة الحاكم الناصح لأمته ودينه . وبذلك كان يعُسُّ فى الليل والناس نيام ، يتفقد المنقطعين والمعوزين والبائسين .. ولعلكم جميعاً تعرفون قصته مع المرأة التى كانت تدق لأطفالها الجياع على الحصى ، وتوهمهم أنها تطبخ لهم ، حتى يسكتواويناموا .. حتى إذا جاء عمر ورأى ما رأى حمل بنفسه الطحين والسمن ، وطبخ بيده الطعام ، وأطعم الأولاد حتى شبعوا ولعبوا .

ولعل أروع مآثر عمر فى الرحمة بالشعب ، موقفه عام الرمادة ،

---

(١) تضاعفت وازدادت .

وقد كان ذلك فى سنة ١٨ هـ ، إذ أصاب الناس فى الحجاز قحط عظيم دام تسعة أشهر ، حتى كانت الوحوش تأوى إلى الناس ، وكان الناس يحفرون نفق اليرابيع والجرذان ، ليأكلوا ما فيها من حشرات . واستغاث عمر بولاة الأمصار أن يمدوه بالميرة والطعام ، ففعلوا ، وكانت سنة أصاب عمر من همها وبلائها وحزنها ما نحل معه جسمه ، واسودَّ لونه ، حتى قالوا : لو لم يرفع الله المحْلَ وعام الرمادة ، لظننا أن عمر يموت هما بأمر المسلمين ..

ولقد كان يؤتى إليه من الأمصار بقوافل الطحين والسمن واللحوم ، فيفرقها على المسلمين ، ما يأكل منها شيئا ، وإنما كان يأكل الزيت والخبز الأسود ، وكان يقول : لقد آليت على نفسى ألا آكل السمن واللحم حتى يشبع منهما المسلمون جميعا .. .

٥ – يقظته فى إدارة الدولة :

كان عمر شديد المراقبة لعماله ، دقيق الاختيار لولاة الأمصار ، وكانت الكفاءة عنده هى أساس تولية العمل ، من غير نظر إلى شىء آخر من عبادة أو زهد ، كان يقول : أريد رجلا ، إذا كان فى القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم ، كان كأنه رجل منهم ، كان يستعمل رجالا مثل عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان وعلى وطلحة والزبير لأن أولئك كانوا أقدر على العمل ، وأحسن قياما به ، وأكثر هيبة له من هؤلاء . وكان إذا استعمل رجلا على عمل ،

كتب عليه كتابا ، وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والأنصار . وإذا بعث عماله إلى الأمصار قال لهم : إنى لم أبعثكم جبابرة ، ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم (أى لا تطيلوا أمد إقامتهم فى الحرب بعيدين عن أهلهم ونسائهم) ولا تمنعوهم فتظلموهم .

ومن قوله رضى الله عنه : إنى لأتحرج أن أستعمل الرجل ، وأنا أجد أقوى منه . وكان يعقد فى كل سنة مؤتمرا لعماله فى موسم الحج ليسألهم عن أحوال البلاد وشئونها ، وسير الإدارة فيها .

وكان علمه بمن بَعُدَ عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن قرب منهم . حتى إن عماله وأمراءه وقضاته ، كانوا يعتقدون فى قرارة أنفهسم أن عين عمر لا تفارقهم ، وأنه يعلم من أخبارهم صغيرها وكبيرها .

وكان له مفتشون ينزلون الأمصار على غير علم من ولاتها ، فيستقصون سيرة الولاة وأحوالها من أفواه الشعب ، ويرونه بأعينهم . وبذلك استقام الأمر فى الدولة الإسلامية فى عهد عمر ، على خير ما يرجو عمر من عدل ونَصَفَةٍ وسعادة للناس أجمعين .

٦ – عبقريته فى التشريع :

كان عمر رضى الله عنه فقيهاً فى دين الله ، بعيد الغور فى فهم أسرار التشريع ، حاد الذهن فى استنباط معانى التنزيل وأحكامه . وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم وقال لهم :

لقد كان يعطيكم رسول الله والإسلام يومئذ ضعيف ، وأما الآن فقد أعز الله الإسلام ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وأسقط حدّ السرقة عام المجاعة بشبهة الجوع الحاملة على ذلك . وكان يحرر العبيد حين يشكون إليه ظلم أسيادهم وتعذيبهم لهم .

وهكذا كان رأس مدرسة فى الصحابة ثم التابعين وأئمة الاجتهاد من بعدهم ، عُرِفتْ بمدرسة أهل الرأى . وكان لها أثر كبير فى الفقه الإسلامى وتيسيره للناس .

رحم الله عمر وأرضاه ، وجزاه عن الإسلام كفاء ما قدم من جهد ، وبذل من نصح ، وأقام للحق والعدل والحضارة من أسس قويمة ، وقواعد راسخة .

من كلماته الخالدة :

قال يوم ولى الخلافة : إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى ، فلا والله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن أهل الصدق والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسننَّ إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلنَّ بهم .

ــ لكم علىَّ أن لا ألقيكم فى المهالك ، ولا أحجركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث ، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم .

ــ كتب إلى الأمصار بعد عزل خالد : إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا

بعَرَض فتنة . (أى معرضين للفتنة بخالد) .

ـــ وكتب إلى سعد حين ولاه حرب العراق : لا يغرنَّك من الله أن قيل : خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم ، وهم عبادُه ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .

* * *

مع عمر بن الخطاب(*)

« رضى الله عنه »

أول خطبة له :

اقرءوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ، يوم تُعرضون على الله لا تخفى منكم خافية . إنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله ، ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولىّ اليتيم ، إن استغنيتُ عففتُ وإن افتقرت ، أكلت بالمعروف[1] .

ومن خطبة له :

أيها الناس ، إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون وأنتم مؤجلون فى دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله ﷺ تؤخذون بالوحى ، فمن أسرَّ شيئا أخذ بسريرته ، ومن أعلن شيئا أخذ بعلانيته ، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر لنا شيئا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا

(*) الشهاب : ٢٣ .

(١) أخرجه الدينورى عن الشعبى - حياة الصحابة : ٤٤٢/٣ .

به حسناً ، واعلموا أن بعض الشح شُعبة من النفاق ، فأنفقوا ﴿ **خيرا لأنفسكم ، ومن يُوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] . أيها الناس أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله ربكم[2] .

امنعوا نفوسكم :

اقدعوا (كفوا) هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلَعَة (تكثر التطلع) وإنكم إن لا تقدعوها ، تنزع بكم إلى شر غاية . إن هذا الحق ثقيل مرىء « حميد العاقبة » وإن الباطل خفيف وبىء « وخيم العاقبة » وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا[3] .

ليس بين الله وبين أحد نسب :

أوصى سعدا حين أرسله لحرب العراق فقال :

ياسعد سعد بنى وهيب ، لا يغرنَّك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السىء بالسىء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاصلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الذى رأيت النبى ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا

---

(١) التغابن : ١٦ .

(٢) حياة الصحابة : ٣/٤٥٠ نقلا عن تاريخ الطبرى : ٣/٢٨٢ .

(٣) العقد الفريد : ٢/١٦٠ وصبح الأعشى : ١/٢١٤ .

فالزمه ، فإنه الأمر .

السر والعلانية :

ومما أوصاه به :

عود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادا (أى عدة) فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه فى الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد فى التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم وإن الله إذا أحب عبداً حببه ، وإذا أبغض عبداً بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك .

الذنوب أخوف على الجيش من العدو :

وكتب إلى سعد ومن معه من الأجناد :

أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصى

منكم ، ومن عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل (لما عملوا بمساخط الله) كفار المجوس ﴿ **فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا** ﴾ ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم .

(**أقول**) وهذا الكتاب مما يجب أن يحفظه كل داعية إلى الله عز وجل ، ومما يجب أن يتنبه لما فيه كل زعيم وقائد . ألا ليت الذين يجتمعون الآن فى جامعة الدول العربية، ويبحثون عن سلاح ليخوضوا به معركة الدفاع عن بلادهم ، ليتهم قرءوا هذا الكتاب وعملوا به ، إذاً لأيقنوا أن السلاح الروحى والخلقى للأمة والجيش ، تجب العناية به قبل العناية بالسلاح المادى .. إن عمر يصرخ – فى هذا الكتاب – من عالم الخلود بهؤلاء الذين يريدون أن يتسابقوا مع إسرائيل فى السلاح ، حتى يكونوا أقوى منها عدة .. يصرخ بهم ويقول: لا تنسوا السلاح الذى هزمنا به كسرى وقيصر : وهما أعز من شاريت وابن غوريون ، وفتحنا به الشام والعراق ، وقد كنا يومئذ

أمنع من إسرائيل اليوم ...

لا تنسوا سلاح الطاعة والتقوى ...

لا تنسوا أن تنتصروا على أنفسكم وشهواتكم وأحقادكم وطغيانكم ، قبل أن تحاولوا النصر على عصابات إسرائيل ..

* * *

عثمان بن عفان(*)

تاريخه فى سطور :

١ – ولد فى العام الخامس لحادثة الفيل ..

٢ – كان خامس خمسة آمنوا بالإسلام ..

٣ – كان عمره حين توفى الرسول ثمانيا وخمسين سنة .

٤ – تفرد من بين الصحابة بزواجه من ابنتى رسول الله ووفاتهما فى حياته ..

٥ – ومن أعماله الخالدة جمعه الناس على مصحف واحد بقراءة واحدة ..

٦ – تولى الخلافة فى غرة المحرم عام ٢٤ هـ .

٧ – كان عمره حين تولى الخلافة سبعين سنة .

٨ – استشهد فى ١٨ من ذى الحجة عام ٣٥ هـ .

٩ – كان عمره حين استشهد اثنتين وثمانين سنة ..

١٠– مدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية أيام ..

١١– دفن ليلا بعد أن منع البغاة تشييع جثمانه ، وكان دفنه بالبقيع فى مكان اشتراه بنفسه وأضافه إليه .

(*) الشهاب : ١٢ .

١٢- تزوج ثمانيا من النسوة توفى عن أربع منهن وهن : فاختة ، وأم البنين ، ورملة ، ونائلة .
١٣- كان له تسعة أبناء وثمانى بنات : عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر وعمرو، وعمر، وخالد، والوليد وسعيد وعبد الملك ..

اسمه :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف الأموى القرشى .

مولده :

ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله ﷺ ، وكان عمره حين البعثة خمسا وثلاثين سنة .

صفته :

كان مربوعا ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، أسمر ، وافر اللحية ، أصلع عظيم الكتفين .

إسلامه :

كان فى جاهليته عفا ، كريما ، مستقيما فى خلقه ، معروفا بعقله ورجاحة رأيه ، فما دعاه أبو بكر إلى الإسلام حتى استجاب للدعوة، وأعلن بين يدى رسول الله إسلامه ، فكان من أوائل السابقين إلى الإسلام . ولما علم عمه الحكم بإسلامه ، أوثقه كتافا وقال له : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث ؟ والله لا أحلك حتى تدع

ما أنت عليه ! فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أفارقه . فيئس عمه منه وتركه وشأنه .

مع الرسول :

وكان مع رسول الله مثال المؤمن المخلص الذى وهب لله ولرسوله نفسه وحياته وراحته ، زوجه رسول الله بعد إسلامه بقليل بنته رقية ، ثم هاجر معها إلى الحبشة مع عشرة من الرجال وخمس من النسوة . ثم عاد منها إلى مكة قبل الهجرة . ثم كان فيمن هاجر إلى المدينة مع زوجه ، ولازم رسول الله فى معاركه ومجالسه كلها ، لم يغب إلا عن بدر ، إذ مرضت زوجته رقية ، فأذن له الرسول بالبقاء عندها لتمريضها . وقد أسهم له الرسول فى غنائم بدر كمن شهدها . ولما خرج الرسول إلى غزوة غطفان استخلفه على المدينة حتى رجع . وقد توفيت زوجته فى عام أحد، فزوجه الرسول بنته الثانية أم كلثوم، وبذلك سمى (ذا النورين) . وقد كان فى غزوة الحديبية رسول النبى إلى قريش ليؤكد لهم أن الرسول لا يريد حربا ، وإنما يريد ومن معه من المسلمين زيارة البيت الحرام ، فحبسته قريش ، وأشيع فى المسلمين أنه قتل، فصمم الرسول على مناجزتهم الحرب، ودعا المسلمين إلى البيعة على الموت فى سبيل الله ، وقد مد الرسول إحدى يديه وقال : هذه يد عثمان ، وضرب بها يده الأخرى كمن يبايع . وفى غزوة تبوك كانت له اليد الطولى فى تجهيز الجيش والإنفاق عليه ، ولم يفارق رسول الله الدنيا إلا وقد شهد له بالجنة[1]، وأصبح

---

(١) البخارى : ٥/١١،١٦،١٩ .

معدودا من كبار الصحابة ، الذين أسهموا مع النبى بأموالهم وجهودهم فى نشر الدين وتثبيت دعائمه .

مع أبى بكر وعمر :

وكان فى حياة أبى بكر وعمر من كبار رجال الدولة الذين يستشارون فى الملمات ، ويعتمد عليهم فى الحوادث ، ولم يضنّ عليهما ، ولا على الدولة بمعونة ولا تأييد مادى أو معنوى ، حتى آلت إليه الخلافة بعد مقتل عمر رضى الله عنه .

فى خلافته :

بويع بالخلافة من بين ستة من كبار الصحابة عينهم عمر للخلافة ، واستمر فى خلافته ستة أعوام ، نعم فيها المسلمون بالأمن والاستقرار، وتوالى الفتوح ، واتساع رقعة الدولة . ففى عهده فتحت الخزر (الترك) وتوغل المسلمون فى خراسان وقهستان وطخارستان ، وافتتحوا تفليس وقبرص . وفى عهده أنشىء أول أسطول بحرى للمسلمين . وتوالت انتصارات المسلمين فى البحر ، حتى أصبحت الدولة الإسلامية دولة بحرية . ثم ابتدأت الفتنة ، واضطراب أمر المسلمين ست سنوات أخرى من خلافته ، لم تنته إلا بمصرعه شهيدا فى بيته على يد نفر من الأشقياء من زعماء الفتنة .

ابتدأت الفتنة بدسائس اليهودى الأثيم عبد الله بن سبأ الذى تظاهر بالتشيع لعلى ، والانتقاص من عثمان ، وأخذ ينشر الأكاذيب عن سياسته وأعماله . وقد وجد فى دهماء الأمصار الكبرى ، الكوفة

والبصرة ومصر ، مرتعا خصبا لترويج أكاذيبه . وقد استجاب للفتنة رءوس الشر من طالبى الزعامة ، وحديثى العهد بالإسلام ، ممن لم يعرفوا قدر عثمان ، ولم يشهدوا بلاءه فى الدعوة ، وسبقه إلى اعتناقها ، ورضى رسول الله ﷺ عنه ، وشهادته له بالجنة . وهكذا تعاون الدس اليهودى ، مع الطمع الدنيوى ، مع طيش الشباب ، ونسيان آداب الإسلام مع أولى الأمر ، وكبار صحابة الرسول وقدماء الدعاة إلى الله ، تعاون كل ذلك على إيجاد الفتنة الكبرى التى ابتدأت بقتل الخليفة الصحابى الجليل ، وهو فوق الثمانين من عمره ، ثم انتهت إلى تفريق كلمة المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، وتفريقهم إلى شيع وأحزاب ، كل حزب بما لديهم فرحون .

ولقد أحكموا أسباب الفتنة ، حتى أحاطت بالخليفة المظلوم من كل جانب ، فأثاروا أولا دهماء الناس فى الأمصار على ولاتهم ، ليضطرب الأمن ، وتنتشر الفوضى ، ثم أخذوا يكتبون إلى أهل كل مصر من الأكاذيب عن سوء أوضاع البلد الآخر ، مما يجعل الذين يسمعون هذه الأخبار ، يعتقدون أن الظلم والفوضى والاضطهاد ضارب أطنابه فى ذلك المصر ، ثم يحملون تبعة ذلك كله على عثمان ، أمير المؤمنين ، حتى إذا بلغوا غايتهم من تهييج الدهماء ، تواعدوا باسم الحج على الحضور إلى المدينة ، مقر الخليفة ، لمحاصرتها ، وإنفاذ جريمتهم التى بيتوها . وجاء أوشاب مصر والكوفة والبصرة ، كل من طريق غير طريق الآخر ، حتى أحاطوا بالمدينة ، فخرج إليهم على رضى الله عنه ، وناقشهم ، فأبطل حججهم ، وبين ما يفترون على

الخليفة ، وما يتجاوزون فيه الحق ، فتظاهروا بالاقتناع بحيث عاد علي إلى المدينة ، واطمأن الصحابة إلى انتهاء الفتنة . ولكنه سرعان ما فاجئوأ المدينة بالليل ، واحتلوها ، وانتشروا فى أرجائها ، يعلنون الثورة على خليفة المسلمين ، وناقشهم عثمان فيما زعموه من أسباب ثورتهم ، وتبين له أن ليس فيها سبب واحد يدعو إلى شق عصا الطاعة ، ولكم الكيان الإسلامى وتوهينه .

فقد أخذوا على عثمان أنه أتم الصلاة فى منى ، وقد كان رسول الله وصاحباه يقصران فيها ، فأجابهم : إنى قدمت بلدا فيه أهلى ، وأن فى الحج من هم حديثو العهد بالإسلام ، فخشيت أن يظنوا أن الصلاة فى منى تكون ركعتين دائما ، فأتممت لهذين الأمرين . ثم سألهم : أليس كذلك ؟ قالوا : بلى .

وأخذوا عليه أنه أخذ بعض المراعى المملوكة لأصحابها ، فحماها ، وأباحها لإبل بيت المال ، وغنم المسلمين ، فأجابهم ، بأنه فعل ذلك لمصلحة المسلمين ، لا لمصلحته هو ، فليس له ثاغية ولا راغية . ولقد ولى الخلافة وهو أكثر العرب بعيرا ، ثم هو اليوم ليس له شاة ولا بعير إلا بعيرين يحتاجهما فى حجة ... ثم سألهم : أليس كذلك ؟ قالوا : بلى .

وأخذوا عليه أنه جمع القرآن فى مصحف ، وقد كان فى مصاحف متعددة . ولعمرى لو لم يكن لعثمان من مأثرة فى التاريخ إلا جمع الناس على مصحف واحد ، وقراءة واحدة لكفى ، ولكن الحقد والجهل

قلبا مأثرته الخالدة إلى نقيصة ... وقد قال لهم فى جوابه : إن القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنما أنا فى ذلك تابع لمن تقدمنى ، وهو أبو بكر . وسألهم : أليس كذلك ؟ قالوا بلى .

وأخذوا عليه أنه استعمل الشباب الأحداث فى الوظائف والولايات ، فأجابهم بأنه لم يستعمل منهم إلا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء هم أهل عملهم وبلادهم ، فسلوهم عنهم ، ولقد استعمل رسول الله أسامة ، وهو شاب على كبار المهاجرين والأنصار ثم سألهم : أليس كذلك ؟ قالوا بلى .

وأخذوا عليه استعماله لبعض أقربائه ، فأجابهم : بأن رسول الله قد استعمل بعض أقربائه ، وما يضر الحاكم أن يتولى أقرباؤه الحكم ، إذا كانوا على خير واستقامة وصلاح .

وهكذا ألزمهم عثمان الحجة ، ولو كانوا يريدون فى ثورتهم الحق لاستمعوا إليه ، ونزلوا عنده ، ولكنهم طلاب إمرة - كما قال عثمان ذلك عنهم فى بعض خطبه - ورواد فتنة ، وحديثو عهد بالإسلام ، أغراهم الشيطان بالشر ، بحجة إنكار الظلم ، وطلب الإصلاح ، فظلموا الأمة وأفسدوا الدولة ، وفتقوا فى الإسلام فتقا لم يُرّتق بعد . وأحاطوا بالخليفة فحصروه فى بيته ، ومنعوه من حضور المسجد ، وحبسوا عنه الطعام والماء ، وهو يناشدهم الله أن يذكروا صحبته لرسوله ، وبلاءه فى الإسلام وإنفاقه أمواله فى سبيل الله . وما كان لمثل هؤلاء البغاة أن تهزهم سابقة عثمان ولا تضحياته ، وهم لم يكن

لهم شرف السبق إلى الإسلام ، فيعرفوا للسابقين فضلهم ، ولا كانوا أهل تضحية وإنفاق ، ليذكروا للمنفقين أياديهم ، وحسن صنيعهم . واستمروا فى حصار البيت ، والخليفة يمنع أحدا من أن يقاومهم بالسلاح ، لئلا يكون سفك دماء المسلمين على يده . وأصروا على أن يتنازل عن الخلافة ، فأبى أن ينزع ثوبا ألبسه الله إياه ، أو يفرط فى أمانة المسلمين فى عنقه ، وهم حفنة من البغاة ، لا يمثلون جماعة المسلمين ، ولا يعبرون عن آرائهم . واستنجد الخليفة بالأمصار ، وخشى الثائرون أن تأتيه النجدات – وقد تحركت فعلاً من البصرة والشام – فينكشف أمرهم ، وتخذل حركتهم ، فتسوروا على عثمان البيت ، وأحرقوا الأبواب ، وتقدم بعض أشقيائهم فضربه على رأسه ، وهو يتلو كتاب الله . وأرادت زوجته الوفية البارة « نائلة » أن تحول دون ضربه السيف بيدها فتقطعت أصابعها ، ثم هجم عليه شقى آخر فأمسك بلحيته ، واحتز رأسه ، كما يحتز الجزار الشاة ، وصعدت إلى الله روح الخليفة المظلوم ، تلعن دعاة الفتنة بلسان اثنين وثمانين عاما ، كان كل يوم فيها أكرم على الله ، وأبرَّ بالإسلام ، من أعمار هؤلاء الأشقياء جميعا . ولم يكتف الأشقياء بجريمتهم ، بل انتهبوا ما فى البيت من أثاث ، ثم أتوا إلى بيت المال فانتهبوه كله ، وشاع فى المدينة قتل الخليفة ، وكان ذلك لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ، وكان هذا اليوم طليعة الأحداث المشئومة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ...

وإن مجال العبرة فيما سردناه من أسباب الفتنة ومراحلها ، أن دعاة

الشر يلجئون دائما إلى إثارة الجهال والأحداث باسم الإصلاح ، مع أن الإصلاح – لو صلحت نياتهم – لا يكون بتمزيق الشمل ، وتصديع الجماعة ، وفتح باب الفتن على مصراعيه ، ليستفيد منها أعداء الإسلام ما يغريهم بالجد فى حربه ، ومكايدة أهله . ومن مجال العبرة أيضا أن الصحابة لو احتاطوا للشر من بدايته ، وحزموا أمرهم على مناصرة الخليفة المظلوم ، لوئدت الفتنة فى مهدها ، ولكن كبارهم أخذوا يتفرجون عليها ، وهم ينكرونها فى قلوبهم ، ولعل بعضا منهم ممن كان منحرفا عن عثمان ، لم تسؤه هذه الفتنة ، فساعد دعاتها بلسانه ، حين كان يتطاول على الخليفة وينتقده بما لا مجال للطعن فيه ، وما يمكن أن يكون له مخرج حسن ، وزاد فى استفحال الشر ووصول المتآمرين إلى أغراضهم ، حلم عثمان وحياؤه ، وإعفاؤه عنهم فى بداية الثورة . وقد أشار عليه كثيرون بأن يأخذهم بالشدة فأبى ، ولو استعمل سلطان الله الذى آتاه فى تأديب البغاة والخارجين على الجماعة ، لجنب المسلمين نتائج تلك الفتنة العمياء ، ولكن عثمان كان حينئذ يشرف على الثمانين ، وقد وهن منه الجسم ، وضعفت الأعصاب ، وأشرف على لقاء ربه ، ففضل أن يلقاه مظلوما ، على أن يلقاه بدماء رجال انتسبوا إلى الإسلام، وتظاهروا بإقامة شعائره ...

ويرحم الله عثمان فى هذا ، فلقد أنصف نفسه وظلم المسلمين .. وما كان إلا مجتهدا يعمل بما فطره الله عليه من حلم وحياء وسخاء باليد والروح فى سبيل الله .

أبرز نواحي عظمته :

نقتصر - وقد طال الحديث - فى الكلام عن عظمته رضى الله عنه ، على الناحية البارزة فى تاريخه ، وهى سخاؤه العظيم فى سبيل الدعوة ، وإنفاقه عليها فى حياة رسول الله وبعده ، ما جعله يكاد ينفرد بذلك بين عظماء الصحابة ، أنفق على تجهيز جيش العسرة فى غزوة تبوك عشرة آلاف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين فرسا . وجهز ثلاثمائة من فقهاء الصحابة ليكونوا فى الجيش ، وكان لذلك وقع كبير الأثر فى نفس الرسول حتى إنه قال : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم »[1] ثم رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه »[2] وله مأثرة كبرى فى حياة الرسول ، فقد قال عليه الصلاة والسلام مرة : « من يحفر بئر رومة فله الجنة »[3] فاشتراها عثمان ، ثم تصدق بها على المساكين ، وكان يستقى منها كما يستقى كل واحد منهم . وفى عام الرمادة ، فى عهد عمر ، حيث أكل الناس الشجر والدواب من المجاعة ، تصدق بألف بعير عليها المؤونة والطعام وقد جاءه التجار ليشتروها منه فقال : إنى بعتها لله وإنها صدقة على المسلمين .

* * *

(١) صححه الحاكم والذهبى .

(٢) ورد عند أبى نعيم عن أبى سعيد مرفوعا: «اللهم رضيت عن عثمان فارض عنه» ثلاثا.

(٣) البخارى : ١٧/٥ .

مع عثمان بن عفان(*)
رضى الله عنه

اللهم صبرا :

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى حائط من تلك الحوائط (أى فى بستان) فاستأذن رجل خفيض الصوت ، فقال رسول الله ﷺ : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه . فأذنت له فإذا هو عثمان فبشرته فقال : أسأل الله صبرا[1] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : اشترى عثمان بن عفان مع رسول الله ﷺ الجنة مرتين ، حين حفر بئر رومة ، وحين جهز جيش العسرة[2] .

أما بئر رومة ، فقد كانت بالمدينة ، اشتراها عثمان رضى الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم ، وجعلها وقفا لله عز وجل يستقى منها الناس جميعا .

وأما جيش العسرة ، فقد كان ذلك فى غزوة تبوك ، حث رسول

(*) الشهاب : ٢٤ .

(١)،(٢) الحلية : ٥٨/١ عن أبى موسى وعبد الله بن عمرو بن العاص بألفاظ متقاربة .

الله الناس على التبرع للجيش ، فتبرع عثمان بألف بعير وخمسين فرساً عليها أقتابها وأحلاسها ، ثم جاء بعشرة آلاف دينار ، فصبها بين يدى النبى ﷺ ثم جهز عشرة من القراء على حسابه . وفيه يقول رسول الله يومئذ ... « ما ضر عثمان ما عمل به بعد اليوم ، اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض »[1] .

يفرح حين لا يرى المعصية :

أخبر عثمان أن قوما قد اجتمعوا على أمر قبيح ، فخرج إليهم ، فوجدهم قد تفرقوا ، ورأى أثرا قبيحا ، فحمد الله إذ لم يصادفهم ، وأعتق رقبة[2] .

فانظر هذا الفقه فى دين الله ، كيف فرح بستر قوم مسلمين دون أن يراهم على معصية الله ، وقارن بين هذا وبين ما يفعله بعض المتدينين الجاهلين من تتبع عورات الناس ، وإشاعة الفاحشة عنهم ، ويلبس الشيطان عليهم بأن هذا غضب لله ، ودفاع عن الفضيلة ، حتى ليحرضون على التشهير بمن أشيع عنه السوء ، حسبة لله عز وجل ! وإنا لله من الإنحراف فى فهم الدين ، كيف يكون أضر على الدين ممن يعصى الله ، وهو يخجل من معصيته ! ...

الخوف من الله :

قال عثمان : لو أنى بين الجنة والنار ، ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر

---

(١) الحلية : ٥٩/١ والرياض النضرة : ٩١/٣ ، ١٠٠ .

(٢) الرياض النضرة : ١١٢/٢ .

بى ، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير[1] .

وكان لعثمان عبد فقال له ، إنى كنت عركت أذنك فاقتص منى ، فأخذ العبد بأذنه . فقال عثمان : اشدد ياحبذا قصاص فى الدنيا ، لا قصاص فى الآخرة[1]...

الحياء من الإيمان :

قال عثمان يوم حوصر فى الدار : وأيم الله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام وما ازددت للإسلام إلا حياء[2] .

المؤمن ينظر بنور الله :

دخل رجل على عثمان ، وقد نظر إلى امرأة أجنبية ، فلما نظر إليه عثمان قال : أيدخل عليَّ أحدكم وفى عينيه أثر الزنى ؟ فقال له الرجل : أوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ قال عثمان : لا ، ولكنه قول حق ، وفراسة صديق[3] .

يتاجر مع الله فيربح :

قحط الناس فى زمن أبى بكر رضى الله عنه ، فقدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار عليه فقالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وطعاما ، بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان : كم تربحونى على شرائى ؟ قالوا العشرة اثنى عشر ، قال:

---

(١) الرياض النضرة ١١١/٢ .

(٢) الرياض : ١٢٦/٢ .

(٣) الرياض النضرة : ١٠٨/٢ .

قد زادونى ، قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ، قال زادونى بكل درهم عشرة ! هل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة[1] .

الحاكم المسلم مع شعبه :

كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويأكل الخل والزيت ! وقال عبد الله بن شداد : رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وهو يومئذ أمير المؤمنين وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم أو خمسة[2] .

ذوق العابد المسلم :

كان عثمان لا يوقظ أحدا من أهله من الليل إلا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه[3] .

فانظر إلى هذا الذوق الإسلامى الرفيع الذى يرى أن العبادة لله تتنافى مع إزعاج الناس أو إرهاقهم وقارن بين هذا وبين ما يبدو على كثير من المتعبدين الجاهلين من غلظة وقسوة وإرهاق للناس واستخدام لهم فى كل شئونهم دون حساب لإرهاقهم وأوقاتهم .

عليكم بالجماعة :

دخل أبو قتادة ورجل آخر على عثمان وهو محصور فاستأذناه فى الحج فأذن لهما . فقالا له : إن غلب هؤلاء القوم (أى دعاة الفتنة)

---

(١) نفسه : ١١٠/٢ .

(٢) نفسه : ١١٠/٢ .

(٣) نفسه : ١١٢/٢ .

مع من نكون ؟ قال عليكم بالجماعة . قالوا فإن كانت الجماعة هى التى تغلب عليك ! مع من نكون ؟ قال : فالجماعة حيث كانت[1] .

هذا هو الفقه بدين الله وهذا هو الإسلام الذى حمله صحابة رسول الله لنا لا كإسلام بعض الناس الذين يفرقون الصفوف وينبذون الجماعة ، وهم يزعمون أنهم على الحق وما آذى الحق شىء كاختلافهم وتمردهم وخداع الشيطان لهم بأنهم وحدهم على الحق . والجماعة كلها ضالة منحرفة نعوذ بالله من الخذلان وركوب الهوى ...

ماذا قال حين ضرب :

عن هارون بن يحيى أن عثمان جعل يقول - حين ضرب والدماء تسيل على لحيته - لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . اللهم إنى أستعديك وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على بليتى[2] .

وصية عثمان :

لما قتل عثمان شهيدا فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقا مقفلا ففتحوه . فوجدوا فيه ورقة مكتوبا عليها (هذه وصية عثمان) بسم الله الرحم الرحيم . عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق . وأن الله يبعث

---

(١) الرياض : ١٢٨/٢ .

(٢) الرياض : ١٣١/٢ .

من فى القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد . عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث إن شاء الله[1] .

رضى الله عنه وأرضاه وأثابه .

رحم الله عثمان على بلائه فى الإسلام . وسخائه للدعوة ، وصبره عند المحنة . واستشهاده بأيدى دعاة الفتنة .

من كلماته الخالدة :

قال فى أول كتاب بعثه إلى عماله فى الأمصار . أما بعد : فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة و لم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ، ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة ، فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم .

وكتب إلى الناس فى الأمصار يقول لهم :

ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإنى مع الضعيف على القوى ، مادام مظلوما إن شاء الله .

ومن خطبته فى الناس حين نقم عليه البغاة :

فى هذا الدين عيَّابون ظنانون ، يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون ، طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق .

ومن كتابه إلى الناس فى الحج قبل اغتياله :

أما بعد فإن أقواما ممن كان يقول فى هذا الحديث ، أظهروا

---

(١) نفسه : ١٣٣/٢ .

للناس أنهم إنما يدعون إلى كتاب الله عز وجل ، والحق ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها ، فلما عرض عليهم الحق تركوه وأرادوا أن يبتغوا الأمر بغير الحق . طال عليهم عمرى وراث (أبطأ) عليهم أملهم بالإمارة فاستعجلوا القدر .

* * *

علي بن أبي طالب(*)

تاريخه فى سطور :

١ – أول من أسلم من الصبيان وصلى مع رسول الله ﷺ .

٢ – استخلفه الرسول فى بيته ليلة الهجرة . ووكل إليه رد ودائع المشركين .

٣ – زوَّجهُ الرسولُ ابنتَه فاطمة فى السنة الثانية من الهجرة .

٤ – لم يتزوج غير فاطمة حتى توفيت بعد وفاة الرسول بستة أشهر .

٥ – كان عمره حين أسلم عشر سنين ، وحين هاجر ثلاثا وعشرين ،وحين توفى الرسول ثلاثا وثلاثين ، وحين استشهد ثلاثا وستين سنة .

٦ – تولى الخلافة فى ٢٥ من ذى الحجة لعام ٣٥ من الهجرة .

٧ – كانت وقعة الجمل مع عائشة فى جمادى سنة ٣٦ .

٨ – وكانت وقعة صفين مع معاوية سنة ٣٧ .

٩ – وكانت وقعة النهروان مع الخوارج سنة ٣٨ .

(*) الشهاب – ع : ٢١-٢٣-٢٧ .

١٠- واستشهد بالكوفة ليلة ١٧ من رمضان سنة ٤٠ .
١١- كانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر و ٢٢ يوما .
١٢- تزوج فى حياته تسع نسوة وكانت له أمهات أولاد غيرهن .
١٣- ولد له تسعة وعشرون ولدا : أربعة عشر ذكورا وخمس عشرة[1] إناثا .
١٤- أعقب ومن أولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعباس وعمر .

اسمه وكنيته :

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى . يجتمع مع النبى ﷺ فى جده الأول عبد المطلب . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية تجتمع مع النبى ﷺ فى جده الثانى . وهى أول هاشمية ولدت هاشميا .

وكنيته أبو الحسن ، وكناه رسول الله ﷺ « أبا تراب » فكان على يحب أن ينادى به .

مولده :

ولد فى جوف الكعبة ، فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله ﷺ .

بيئته :

كان أبوه أبو طالب أكبر زعماء قريش وشيخ شيوخها . وله فضل فى كف أذى قريش عن النبى ﷺ فى بدء الدعوة . وكان ضيق

---

(١) فى الرياض النضرة : ٤٨/٢ عددهم أربعة عشر ذكرا وثمانى عشرة أنثى .

الحال ، كثير العيال ، فاتفق حمزة والرسول - قبل البعثة - على أن يخففا عن أبى طالب مؤونة العيال ، فكان على من نصيب رسول الله ﷺ ، فتربى فى حجره ، ولازمه حتى بعثهُ الله بالرسالة .

صفته :

كان أسمر اللون ، أصلع الرأس ، ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه ، أبيض شعر الرأس واللحية ، أدعج العينين[١] عريض المنكبين ، شديد الساعد واليد ، خشن الكفين ، عظيم البطن ، قريبا إلى السمن ، ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه ، ضحوك السن ، إذا مشى تَكفَّأ[٢]، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس .

إسلامه :

لم يتدنس رضى الله عنه بدنس الجاهلية ، إذ أسلم دون البلوغ . وأرجح الأقوال : أن عمره حينئذ عشر سنين ، فكان أول من أسلم من الصبيان . رآه أبو طالب فى أحد شعاب مكة يصلى مع رسول الله ﷺ - وكان ذلك ثانى يوم من الرسالة - فقال له أبوه : أى بنى : ماهذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال علي : يا أبي ! آمنت برسول الله ، وصدقت بما جاء به وصليت معه لله ، واتبعته ! فقال أبو طالب : أما إنه لم يدعُك إلا إلى خير فالزمه .

---

(١) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها .

(٢) تكفأ : ماد وتمايل .

مع الرسول :

وما زال منذ أن أسلم يبدى من حبه للرسول ، وتفانيه فى دعوته ، وتضحيته فى سبيلها ، ما جعله من أحب الصحابة إلى قلب رسول الله . استخلفه الرسول فى فراشه ليلة الهجرة ، وجعله أخاه ، حين آخى بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وشهد المشاهد كلها مع الرسول ، وأبلى فيها البلاء الحسن ، ولم يتخلف عن الجهاد مع الرسول إلا فى غزوة تبوك ، إذ استخلفه على المدينة ، فقال على : أتخلّفنى فى الصبيان والنساء ؟ فأجابه عليه السلام : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبىّ بعدى ![1]... وأرسله الرسول بسورة براءة ليقرأها على الناس فى موسم الحج فى العام التاسع للهجرة ، وكان حامل راية الرسول فى أكثر الغزوات.. واستمر فى لزوم رسول الله ، والتضحية فى سبيل الإسلام ، حتى قبض رسول الله ﷺ ، بعد أن زوجَّهُ فاطمة ، وبشره بالجنة ، فكان أحد العشرة المبشرين بها[2] .

وفضائله كثيرة ، حتى قال الإمام أحمد : لم ينقل لأحد من الصحابة من الفضائل ما نُقل لعلى رضى الله عنه .

---

(١) البخارى : ٣/٦ وهو حديث متواتر . انظر نظم المتناثر فى الحديث المتواتر ص ١٢٤-١٢٥ .

(٢) جامع الأصول : ٥٥٨/٨ وقد أخرج حديث العشرة المبشرين بالجنة كل من أبى داود فى سننه رقم ٤٦٤٨ و ٤٦٤٩ و ٤٦٥٠ والترمذى . والعشرة هم : أبو بكر ، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد بن مالك، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد .

بعد الرسول :

ولما استخلف أبو بكر رضى الله عنه ، ورأى إجماع الصحابة على استخلافه بايعه علي عن رضا وطيب نفس ، بعد أن كان يرى أنه أحق بالخلافة . وظل طيلة حياة أبى بكر . نعم العون والوزير ، يساهم فى إدارة الدولة وتصريف الشئون بصدق وإخلاص .

وكذلك كان مع عمر ، فقد كان له وزير صدق ، حتى زوجه بنته أم كلثوم . وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها . وكان فى عهد عمر من كبار الدولة . الذين تُعقد عليهم الآمال . حتى جعله عمر من الستة الذين يُختار منهم الخليفة من بعده . ولما استخلف عثمان بايعه فيمن بايع من جمهور الصحابة ، والتزم نصحه ومؤازرته ، وكان موقفه منه حين ثارت الفتنة ، موقف الناصح المدافع عنه . ولما أطبق الثوار على قصر الخليفة الشهيد ، أرسل ولديه الحسن والحسين بسيفيهما ، حتى نفذ قضاء الله .

فى خلافته :

بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، وكانت أيامه فيها فتن ومعارك دامية صرفت المسلمين مؤقتاً عن إتمام رسالتهم العالمية بالفتوح التى بدأت فى عهد أبى بكر ، واستمرت طيلة عهد عمر ، وشطراً كبيراً من عهد عثمان . ولذلك لم يتح له أن يتمم الفتوحات ، ويتفرغ للإصلاح والبناء . ولو امتد به الأجل ، وخلا عهده من الفتن ، لكان كعهد عمر ، من أزهى عصور التاريخ الإسلامى عدالة

واستقامة ويمناً وبركة على الإسلام ، ورحمة للإنسانية . تولى الخلافة والسيوف مصلتة ، والقلوب متغيرة ، ودسائس أعداء الله من يهود وغيرهم تعمل عملها فى إيقاد جذوة الفتنة ، وتفريق كلمة المسلمين ، حتى التقى المسلمون وجهاً لوجه فى ثلاث معارك كبرى ، وعشرات المعارك الصغرى ، يسفك بعضهم دماء بعض . ومع يقيننا بإخلاصهم جميعاً ، واجتهادهم فى الحق . فإننا لا ننكر ما كان لخلافهم من أثر استمر حتى اليوم ، فى توهين قوة المسلمين ، وإضعاف كيانهم، والتقصير فى أداء رسالتهم الإنسانية للعالم قاطبة .. يرحمهم الله ويغفر لهم ..

ومع هذه الفتن التى أحاطت بخلافته ، فقد كان رضى الله عنه ، شديداً فى الحق ، مقيماً للعدل ، خاشعاً لله ، مجتهداً فى نصح الأمة ، يولى الأخيار ، ويحاسب المقصرين ، ولا يجامل فى الحق أبداً ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، زاهداً فى الدنيا ، بعيداً عن الترف ، وكما كانت حياته جهاداً ، فقد كان موته استشهاداً .

أسباب استشهاده :

كان قبول على رضى الله عنه لفكرة التحكيم - فى موقعة صفين - على غير رضا منه ، وكان يرى أن قبول التحكيم بينه وبين معاوية ضعف ، بعد أن كادت ترجح كفته فى القتال ، ولكن جيشه أجبره على قبول التحكيم . ووقّعت الاتفاقية بين الفريقين ، بتحكيم أبى موسى الأشعرى ، نيابة عن على وجيشه ، وتحكيم عمرو بن العاص ،

نيابة عن معاوية ومن معه . وانصرف الجيشان من المعركة إلى بلادهم . أما جيش معاوية فقد رجع صفاً واحداً ، وقلباً واحداً . وأما جيش على ، فكانوا كما روى الطبرى عن عمارة بن ربيعة : خرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون أحباء ، فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم « أى إنكار التحكيم » . ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ، ويضطربون بالسياط . يقول الخوارج : يا أعداء الله أدْهَنْتم[1] فى أمر الله وحكّمتم . وقال الآخرون : فارقتم إمامنا ، وفرّقتم جماعتنا[2]. فلما دخل على الكوفة ، فارقته جماعة الخوارج وهم يعلنون كفره — وقد كانوا من أشد أنصاره — وكفر من معه ، لأنه قبل بالتحكيم ، ولا حكم إلا لله عز وجل . وحاول على أن يقنعهم بالحجة ، فأرسل إليهم ابن عباس ، فحاجّهم بكتاب الله ، ولزمتهم الحجة ، لولا أن الشيطان يفعل فى العابد التقى مالا يفعله فى الفاجر الشقى . وزيّن لهم الشيطان خروجهم على الجماعة ، واستباحتهم دماء إمامهم وإخوانهم ، وتجمعوا فى مكان يقال له النهروان[3]. وأخيرا وقعت الواقعة بينهم وبين على رضى الله عنه ، فانكسروا شر انكسار ، وقُتل أكثرهم ، وخرج كثير منهم ، وكان ذلك سنة ٣٨ من الهجرة .

---

(١) أدهنتم : صانعتم ولاينتم .

(٢) تاريخ الطبرى .

(٣) النهروان : بفتح النون وكسرها ، كورة واسعة بين بغداد وواسط .

تدبير المؤامرة :

وفى عام ٤٠ هـ اجتمع ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم[1] ، والبرك بن عبد الله[2] ، وعمرو بن بكر التميمى ، فتذاكروا الناس ، وعابوا على ولاتهم ، كما ذكروا جماعتهم أهل النهروان ، وترحموا عليهم وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا ، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم ، والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم ، فلو شرينا[3] أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا . فقال ابن ملجم – وكان من أهل مصر – أنا أكفيكم على بن أبى طالب ، وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان ، وقال عمرو بن بكر : أن أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتواثقوا بالله ، لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه ، حتى يقتله أو يموت دونه ، وتواعدوا أن ينفذوا جريمتهم لسبع عشرة تخلو من رمضان ، وأقبل كل منهم على المصر الذى يقيم فيها صاحبه الذى تكفل باغتياله ؛ فأما البرك بن عبد الله ، فقد تربص لمعاوية ليلة السابع عشر من رمضان فلما خرج ليصلى

---

(١) عبد الرحمن بن ملجم : فاتك ثائر ، من أشد الفرسان أدرك الجاهلية ، وهاجر فى خلافه عمر ، شهد فتح مصر ، وسكنها . كان من شيعة على ، وشهد معه صفين ، ثم خرج عليه .

(٢) البرك : هو الحجاج بن عبد الله المعروف بالبرك : ثائر من أهل البصرة ، كان أول من عارض فى التحكيم ، لما سمع بذكر الحكمين فقال : لا حكم إلا الله . وخرج على الفريقين .

(٣) شرينا : بعنا .

الصبح شدَّ عليه بسيفه ، فوقع فى إليته ، وكان معاوية سميناً ، فلم يؤثر فيه وقُبض على البرك وقُتل ، وأما عمرو بن بكر ، فجلس لعمرو ابن العاص تلك الليلة ، فلم يخرج عمرو ، إذ كان قد اشتكى وجعاً فى بطنه ، وخرج بدلا عنه خارجة بن حُذافة ، صاحب شرطته ، فضربه ابن بكر بالسيف ، فقتله وقبض الناس عليه ، وهو يظن أنه قتل عمرو بن العاص . فلما مَثَل بين يديه قال له : والله يا فاسق ما ظننته غيرك . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ، ثم أمر بقتله فقُتل .

استشهاد على رضى الله عنه :

وأما ابن مُلْجَم ، فقد نزل الكوفة ، فلقى امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ، وقد كان أبوها وأخوها ممن قُتل من الخوارج يوم النهروان ، وكانت بارعة الجمال ، ففتن بجمالها ، ونسى الغرض الذى جاء من أجله – وهو قتل على رضى الله عنه – وقرر أن يخطبها لنفسه ، فلما كاشفها بالأمر ، قالت : آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه ، فقال : وما هو ؟ قالت ثلاثة آلاف دينار ، وعبد ، وقينة ، وقتل على بن أبى طالب فقال لها : لك ما طلبت من المهر ، غير أن قتل على بن أبى طالب يدل على أنك لا تريديننى ! . وإنما تريدين قتلى، قالت : بل التمس غِرَّته[1]، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ، ويهنئك العيش معى ، وإن قُتلت ، فما عند الله خير من

(١) الغرة : الغفلة .

الدنيا وزينتها وزينة أهلها ، فقال فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلاَّ قتل علي ، فلك ما سألت . ثم تربص لعلي ساعة خروجه إلى صلاة الصبح ، فضربه بالسيف ، وهو يقول : الحكم لله ياعلي لا لك ولا لأصحابك ، فخرَّ علي رضي الله عنه ، وتجمهر الناس ، وقبضوا على ابن ملجم ، وأدخلوه على أمير المؤمنين فقال لهم : النفس بالنفس ، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت ، رأيت رأيي فيه . ثم ظل بعدها يومين أو ثلاثة حتى توفي رضي الله عنه سنة ٤٠ من الهجرة[١] .

درس وعبرة :

ولابد للمسلم من أن يقف طويلا عند مقتل علي رضي الله عنه ، فلئن كان عثمان قد قتله الأشرار من دعاة الفتنة ، لقد قتل عليا أحدُ الأشرار ممن انحرفوا في فهم الإسلام ، ولبَّس عليهم الشيطان ، فزين لهم قتل إمام المسلمين ، على أنه طاعة يشترون بها الجنة ! .. لقد كان الخوارج مشهورين بالعبادة والتقوى ، وفيهم يقول أبو حمزة الخارجي :

« عفيفة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، باعوا أنفساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً »[٢] .

---

(١) الرياض : ٢/٢٤٦-٢٤٨ .

(٢) انضاء : جمع نضو وهو المهزول – أطلاح : جمع طلح وهو المعيى المهزول .

ولكن عبادتهم لم تنفعهم حين انحرفوا فى فهم الإسلام ، واستباحوا الخروج عن الجماعة ، واستحلوا دم الإمام العظيم ومن معه من المسلمين .

وهكذا زين لهم الشيطان أعمالهم ، وأضلهم عن السبيل ، ففتحوا باب فتنة كبير على المسلمين ، وزادوا فى فرقتهم ، بعد أن كانوا فريقين : فريقا مع على ، وفريقا مع معاوية ، إلى أن أصبحوا فريقا ثالثا لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . داخلهم الزَّهْوُ والغرور بعبادتهم ، حتى احتقروا المسلمين وكفَّروا أئمة الهدى ، وأضلّوا المغرورين عن دين الله عز وجل . وهاهو ذا التاريخ يعيد نفسه ، وهاهم أولاء فريق ممن زين لهم الشيطان غروهم بالطاعة والعبادة يكفرون رجال الإصلاح ، ويستحبون لأنفسهم تفريق صفوف الجماعة ، وتوهين بنيان الدعوة . ونكاد نظلم الخوارج الأولين حين نشبه هؤلاء بهم ، فلقد كان أولئك أبطال جهاد لا يكذبون ، وهؤلاء أبطال كلام لا يصدقون ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

بعد استشهاد على :

وهكذا لقى الإمام العظيم ربه بعد جهاد مرير مع خصومه وجنوده . أما خصومه ، فقد حملوا فى وجهه السلاح ، وأما جنوده ، فقد نكثوا معه البيعة ، وتمردوا على نصحه ورأيه ، ثم أفرط فريق منهم ، حين زعم أنه يغضب لله وينتصر للحق ، فإذا هو يستحل الدم الحلال ، والعرق البرىء ، وإذا هو مفرق البنيان المتراص ،

والشمل المجتمع ...

كان المسلمون حين قُتل على : ثلاث طوائف كبرى : شيعة لعلي ، وشيعة لمعاوية ، وخوارج يستحلون دماء الفريقين .. ولئن كان علي رضى الله عنه على الحق فى قتاله مع معاوية ، وكان الذين وقفوا بجانبه هم خيرة صحابة رسول الله ﷺ ، فلقد كان من الواجب أن تنتهى هذه الفرقة بعد تنازل الإمام الحسن بن علي رضى الله عنهما لمعاوية بالخلافة ، وكان يجب أن يلتئم شمل المسلمين ليتمموا رسالتهم الأولى وينشروا دعوة الله فى الأرض ، ولكن أعداء الله والإسلام لا يروق لهم اجتماع كلمة المسلمين ، فاتخذوا من مقتل علي ثم الحسين بعده رضى الله عنهما وسيلة لإيقاد نار العداء بين جماهير المسلمين ، ومنذ قام اليهودى الخاسر عبد الله بن سبأ يتشيع لعلي ويزعم ألوهيته ؛ منذ ذلك الوقت وجد أعداء الإسلام فى التشيع لعلى شعارا يعملون من ورائه لهدم كيان الدولة الإسلامية الفتية ، ولو كان علماء المسلمين منذ عهد الصحابة متنبهين تمام التنبه للدسائس اليهودية والوثنية والمجوسية والديانات الحاقدة على الإسلام ، لكان تاريخ المسلمين غير هذا التاريخ ، ولحفظت حرمات المسلمين وحقنت دماؤهم ، ولكان أثرهم فى التاريخ أكبر مما جرى به القدر ، ولكن الله غالب على امره ...

فهل يفيق المسلمون من غفوتهم ، وهل يتعظون من دروس التاريخ ؟

وهل لهم أن يفيئوا جميعا إلى كتاب الله ، ويقضوا على هذه الفرقة التى جعلت الجسم الإسلامى مثخنا بالجراح ؟ هل لعقلاء أهل السنة والشيعة أن يلتقوا من جديد ، على الدفاع عن هذا الإسلام الذى يحاول أعداؤه القضاء عليه دون أن يفرقوا بين سنة وشيعة ؟ هل للفريقين أن يعيشوا فى الحاضر عاملين لمصلحتهم بدلا من أن يعيشوا فى الماضى متحزبين إلى قوم لقوا الله وقد أصبحوا حبساء أعمالهم كل امرىء بما كسب رهين ؟

* * *

أبرز نواحى عظمته

١ - علمه :

كان رضى الله عنه من علماء الصحابة، وأشهر فقهائهم، وأدقهم نظرا ، وأشدهم توفيقا للحكم الصائب ، والرأى السديد ، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكلت عليهم المسائل . ولقد عُرف بدقة الفهم ، وسداد الرأى منذ عهد النبى ﷺ ؛ فقد أرسله عليه السلام إلى اليمن قاضيا ، وكان مما عُرض عليه فى القضاء ، أنّ أربعة وقعوا فى حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد ، سقط أولا رجل ، فتعلق بآخر ، وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة ، فجرحهم الأسد فماتوا من جراحتهم . وتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون ، فقال على : أنا أقضى بينكم ، فإن رضيتم فهو القضاء ، وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضى بينكم ؛ اجمعوا من القبائل الذين حفروا الحفرة ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة ، فللأول ربع الدية لأنه كان سببا فى هلاك الثلاثة الذين هلكوا معه ، فسقط من ديته بمقدارهم ، وبقى له الربع ، وللذى يليه ثلث الدية ، لأنه أهلك الاثنين اللذين هلكا بعده ، وللثالث نصف الدية ، لأنه أهلك من بعده ، وللرابع الدية كاملة ، لأنه هلك بصنع من قبله ، ولم يهلك بصنعه أحد . فأبوا أن يرضوا بهذا القضاء ، وأتوا رسول

الله ﷺ ، فقصوا عليه القصة ، فأجاز قضاء على رضى الله عنه[1] .

وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام أقضى أمتى على[2] .

ومن أقضيته التى تدل على ذكاء وفطنة : جلس اثنان يتغدّيان ، ومع أحدهما خمسة أرغفة ، ومع الآخر ثلاثة ، وجلس إليهما ثالث ، واستأذنهما فى أن يأكل معهما ، فأذنا له ، وأكلوا سواء ، ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم ، وقال : هذا عوض ما أكلت من طعامكما . فتنازعا فى قسمتها ، فقال صاحب الخمسة : لى الخمسة ، ولك ثلاثة . وقال صاحب الثلاثة : بل نقسمها على السواء . فترافعا إلى علي ، فقال رضى الله عنه لصاحب الثلاثة : اقبل من صاحبك ما عرض عليك ، فأبى وقال : ما أريد إلا الحق . فقال علي رضى الله عنه : لك درهم واحد وله سبعة ! قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين !؟

قال : لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثا : لصاحب الخمسة عشر ، ولك تسعة ، وقد استويتم فى الأكل فأكلت ثمانية وبقى لك واحد ، وأكل صاحبك ثمانية وبقى له سبعة ، وأكل الثالث ثمانية ، سبعة لصاحبك وواحد لك ، فقال : رضيت الآن[3] .

وكثيرا ما كان الصحابة يحيلون عليه من يتوجه إليهم بسؤال عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المناقب - وفى الرياض النضرة : ١٩٩/٢ .

(٢) أخرجه فى المصابيح - وفى الرياض : ١٩٨/٢ .

(٣) الرياض : ١٩٩/٢ .

مسألة من مسائل العلم .

قال أذينة العبدى : أتيت عمر فسألته : من أين أعتمر ؟ قال : ائت عليا فاسأله[1] .

وجاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة فقال : سل عنها على بن أبي طالب ، فهو أعلم . قال : يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إلىَّ من جواب علي . فقال له معاوية : بئس ما قلت : لقد كرهت رجلا كان رسول الله ﷺ وسلم يغزره بالعلم غزرا[2] .

وسئلت عائشة عن المسح على الخفين فقالت : ائت عليا فسله[3] .

وكثيرا ما رد عمر عن قضائه حين يخطىء . رفعت إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر ، فأراد عمر رجمها ، فقال له علي : إن الله تعالى يقول : ﴿ **وحَمْلُهُ وفِصالُه ثلاثون شهرا** ﴾[4]، وقال تعالى : ﴿ **وفصاله فى عامين** ﴾[5] فالحمل ستة أشهر ، والفصال فى عامين . فترك عمر رجمها وقال : لولا علي لهلك عمر [أخرجه العقيلى] . ورفع إلى عمر أمر امرأة حامل من الزنى ، وقد اعترفت به ، فأمر برجمها ، فتلقاها علىّ وقال : ما بال هذه ؟ قالوا : أمر عمر برجمها ،

---

(١) رواه ابن عبد البر عن أذينة بن مسلمة العبدى .
(٢) أخرجه أحمد فى المناقب – وفى الرياض : ٢/١٩٥ .
(٣) مسلم : ١/١٦٠ ط دار الطباعة العامرة عام ١٣٢٩ هـ .
(٤) سورة الأحقاف : آية ١٥ .
(٥) سورة لقمان : آية ١٤ .

فردها عليّ وقال لعمر : هذا سلطانك عليها ، فما سلطانك على ما في بطنها : « يعنى الحمل » ولعلك انتهرتها أو أخفتها ! قال : قد كان ذلك . فقال علي : أو ما سمعت رسول الله ﷺ قال : لا حدَّ على معترف بعد بلاء ؟ إنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له . فخلى سبيلها[1] .

وهكذا كان علي رضي الله عنه ، يحل المشكلات ، وينبه إلى الأخطاء ، حتى كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها علي رضى الله عنه .

٢ - شجاعته :

كان رضى الله عنه من الشجاعة بالمحل الأوفى .

أبلى يوم بدر بلاء حسنا ، برز من المشركين فى معركة بدر ثلاثة من أبطالهم يطلبون البراز ، وهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فأخرج لهم رسول الله ثلاثة من أقرانهم ، أخرج عبيدة ابن الحارث لعتبة بن ربيعة ، وحمزة لشيبة بن ربيعة ، وعليا للوليد بن عتبة . فقتل علي صاحبه ، وقتل حمزة صاحبه ، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين ، كلاهما جرح صاحبه ، فحمل حمزة وعلي على عتبة فقتلاه[2]

وأبلى رضى الله عنه فى معركة أحد بلاء مشهودا ، وقد قتل فيها

---

(١) الرياض : ٢/١٩٥-١٩٦ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢/٦٢٥ .

حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة ، وكان فيمن ثبت مع رسول الله حين انهزم المسلمون فى أحد[1]، ولما جرح رسول الله كانت فاطمة تغسل عن وجهه الدم ، وعلى يسكب الماء .

ثم كان حامل لواء رسول الله فى غزوة حمراء الأسد بعد غزوة أحد .

أما فى معركة الخندق (غزوة الأحزاب) فقد كان له البلاء المشكور .

خرج من صفوف المشركين عمرو بن ود ونادى المسلمين : من يبارز ؟ فبرز له علي رضى الله عنه ، فقال له : ياعمرو ، إنك قد كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه . قال له أجل ! قال له علي : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام فقال : لا حاجة لى بذلك . قال : فإنى أدعوك إلى النزال . فقال له عمرو : لم يابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ! قال علي : لكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمِى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضى الله عنه[2] .

وفى معركة خيبر ، تعذر فتح الحصون على المسلمين أولا ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ،

---

(١) المصدر نفسه : ١٢٧/٣ ، ٨٠/٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٥/٣ . ومعنى (حمى) : اشتد غضبه .

يفتح الله على يديه ، ليس بفرار . ثم دعا عليا ، وهو أرمد ، فتفل فى عينه ، فبرئت[1] ثم خرج علي ، فلما دنا من الحصن ، خرج إليه أهله ، فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود ، فطرح ترسه من يده ، فتناول رضى الله عنه بابا كان عند الحصن ، فترَّس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل ، حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ . قال أبو رافع ، وكان مع علي فى هذه الموقعة : فلقد رأيتنى فى نفر معى سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه[2] .

سئل ابن عباس : أكان علي يباشر القتال يوم صفين ؟ فقال : والله ما رأيت رجلا أطرح لنفسه فى متلف من علي ، ولقد كنت أراه يخرج حاسر الرأس ، بيده السيف ، إلى الرجل الدارع فيقتله[3]

٣ - ورعه وزهده :

قال لعمر وهو فى خلافته : يا أمير المؤمنين ! إن سرك أن تلحق بصاحبيك (يعنى رسول الله وأبا بكر) فأقصر الأمل ، وكُلْ دون الشبع ، وأقصر الإزار ، وارفع القميص ، واخصف النعل تلحق بهما[4] .

---

(١) الهيثمى - مجمع الزوائد : ١٢٤/٩ .

(٢) سيرة ابن كثير : ٣٥٩/٣ وقال : وفى هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر .

(٣) الرياض : ٢٢٥/٢ .

(٤) نفسه ١٩٧/٢ .

وهذا يدلك على روحه وطبيعته وطراز الحياة التى يحبها . وكذلك عاش رضى الله عنه فى خلافته ، يلبس الخشن من الثياب ، ويتعفف عن أموال المسلمين . قال أبو سعيد الأزدى : رأيت عليا فى السوق وهو يقول : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندى . فجاء به ، فأعجبه ، فأعطاه ثم لبسه ، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه ، فأمر به لقطع ما فضل عن أصابعه[1] ... وقد عوتب فى لباسه الرخيص فقال : مالك واللبوس ؟ ان لبوسى هذا أبعد من الكبر ، وأجدر أن يقتدى به المسلم[2] .

ودخل عليه رجل فى أيام البرد ، فوجده يرعد من البرد ، وهو يلبس دثارا باليا ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك فى هذا المال ، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع ؟ فقال علي : ما أرزؤكم من مالكم ، وإنها لقطيفتى - دثارى - التى خرجت بها من المدينة[3] .

وصف ضرار لعلي :

وخير ما نختتم به هذه الأحاديث عن علي ، وأخلاقه ، ونواحى عظمته ، ما أخرجه الدولابى : أن معاوية قال لضرار الصدائى : صف لى عليا - وكان ذلك بعد استشهاده - فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين!

---

(١) نفسه ٢/٢٣٠ .

(٢) نفسه ٢/٢٣٠ .

(٣) الرياض : ٢/٢٣٥-٢٣٦ .

قال : لتصفنَّه . قال ضرار : كان والله بعيد المدى شديد القُوى ، يقول فَصْلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس إلى الليل ووحشته ، وكان غزير العَبْرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . كان فينا كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، ولا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله . وأشهد بالله : لقد رأيته فى بعض مواقفه – وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يميل فى محرابه – قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول . يادنيا غرّى غيرى ، إلى تعرضت ؟ أم إلىَّ تشوفت ؟ هيهات ! قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك قليل ، آه آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ؟ ...

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه ياضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها ، لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها[1] .

---

(١) الرياض: ٢/٢١٢-٢١٣ وقال: أخرجه الدولابى وأبو عمرو صاحب الصفوة. وأبو نعيم فى الحلية: ١/٨٤-٨٥ مع بعض الزيادات التى أضفناها إلى الأصل. دون الإشارة إليها. ومعنى (السليم): الملدوغ، من ألفاظ الأضداد – لا ترقأ : لا تسكن ولا تنقطع .

يرحمه الله ، ويجزل له المثوبة ، ويجعل لنا فى سيرته خير عظة وعبرة .

من كلماته الخالدة

وصيته للمسلمين :

ولما حضرته الوفاة أوصى فكان من وصيته :

أوصيكم بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فإنى سمعت أبا القاسم صلى ﷺ يقول : « إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام »[1] الله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معاشكم ، والله الله فى ذمة نبيكم ، فلا يظلمن بين أظهركم ، والله الله فى أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله أوصى بهم .

لا تخافن فى الله لومة لائم ، يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم ، وقولوا للناس حسنا ، كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الأمر شراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع أستودعكم الله .

وصيته لأولاده :

دخل جندب بن عبد الله على علي ، رضى الله عنه ، يوم طعن ،

---

(١) يوسف النبهانى – الفتح الكبير : ٣٩٥/١ وقال : رواه الطبرانى .

فقال له : ياأمير المؤمنين ، إن فقدناك - ولا نفقدك - هل نبايع الحسن ؟

فقال رضى الله عنه : ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر .

ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما :

أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء ذوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً ، واعملا بما فى الكتاب ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم .

ثم أوصى ابنه محمد بن الحنفية بما أوصى أخويه ، وأوصاه بتوقير حقهما ، وأن لا يقطع بأمر دونهما ، ثم أوصاهما به ، وقال :

علمتما أن أباكما كان يحبه .

ـــ اعملوا فى غير رياء ولا سمعة ، فإنه من يعمل لغير الله ، يكله الله لمن عمل له .

ـــ لسان الصديق يجعله الله للمرء فى الناس خيراً له من المال يورثه غيره .

ـــ الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله ثوب الذل ، وشملة البلاء .

ـــ لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى العسل ، ولباب القمح ، ونسائج القز ، ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودني جشعى

إلى تخير الأطعمة ، أفأبيت مبطاناً وحولى بطون غرثى ، وأكباد حرى[1]، أأقنع من نفسى بأن يقال : هذا أمير المؤمنين . ولا أشاركهم فى مكاره الدهر . أو أكون لهم أسوة فى خشونة العيش ؟

من كتابه إلى الأشعث بن قيس عامله على أذربيجان : « إن عملك ليس لك بطعمة . ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك . ليس لك أن تفتات فى رعية . ولا تخاطر إلا بوثيقة » (أى إلا أن تكون مستوثقا محتاطا) .

احفظوا عنى خمسا ، فلو ركبتم الإبل فى طلبهن لأنضيتموهن قبل أن تدركوهن : لا يرجون عبد إلا ربه .ولا يخاف إلا ذنبه ، ولا يستحى جاهل أن يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحى عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . ولا إيمان لمن لا صبر له .

* * *

(١) غرثى : جائعة - حرى : ظمأى .

مع على بن أبى طالب(*)

« رضى الله عنه »

وصيته لكميل بن زياد :

ياكميل بن زياد ! القلوب أوعية : فخيرها أوعاها . احفظ ما أقول لك . الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة . وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم يزكو على العمل (أى ينمو ويزيد بالعمل به) والمال تنقصه النفقة ، ومحبة العالم دين يدان بها ، العلم يكسب الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد موته . وصنيعة المال تزول بزواله . مات خزان الأموال وهم أحياء . والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة . وأمثالهم فى القلوب موجودة ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدرا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة

(*) الشهاب : ٢٥-٢٦ .

بالمنظر الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى بلاده ودعاته إلى دينه[1] .

الدنيا لأحد رجلين :

ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك ، وأن تباهى الناس بعبادة ربك ، فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله ، ولا خير فى الدنيا إلا لأحد رجلين : رجل أذنب ذنباً فهو يتدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع فى الخيرات ، ولا يقل عمل فى تقوى وكيف يقل ما يتقبل ؟[2] .

أقول : وليست المباهاة بالعبادة أن يفاخر بها فذلك مما يحبط الأجر ، ولكنها هنا هى أن يعتز المؤمن بعبادته ، ولا يخجل منها ، كما يفعل ضعاف الإيمان حين يكونون مع الملحدين أو الفاسقين .

لا ينفع العمل من غير قبول :

كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل ، فإنه لن يقل عمل مع التقوى ، وكيف يقل عمل يتقبل ؟[3] .

من هو الفقيه :؟

ألا إن الفقيه كل الفقيه الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم فى معاصى الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، ولا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا خير

---

(١) حلية الأولياء : ١/٧٩-٨٠ والهمج والرعاع : سفلة الناس والحمقى .

(٢)،(٣) نفسه : ١/٧٥ – ٧٦ ومعنى أنضيتموهن : أهزلتموهن .

فى علم لا فهم فيه ، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها[1] .

الهوى وطول الأمل :

إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحد منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل[2] .

أقسام الصبر :

للصبر أربع شعب : الشوق ، والشفقة ، والزهادة ، والترقب ، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات . ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات[3]

أقسام الجهاد :

.. وللجهاد أربع شعب : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى المَواطن ، وشنآن الفاسقين . فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق فى المواطن (أى ثبت فى المعركة) قضى الذى عليه وأحرز دينه ، ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله ومن غضب لله يغضب الله له[4] .

---

(١)،(٢) نفسه : ١/٧٥-٧٦

(٣)،(٤) الحلية : ١/٧٤ الشنآن : البغض .

احذروا الكذب وانصحوا أنفسكم :

..من خطبة له رضى الله عنه :

إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه ، والمغبون من غبن نفسه ، والمغبوط من سلم له دينه ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من انخدع لهواه وغروره واعلموا أن يسير الرياء شرك ، ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضرة للشيطان ، جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان الصادق على شفا منجاة وكرامة ، والكاذب على شرف مهواة ومهانة ، ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب . ولا تباغضوا فإنها الحالقة (أى تحلق دين المتباغضين كما تحلق الموسى الشعر) .

دعــاء :

اللهم اغفر لى ما أنت أعلم به منى . فإن عدت فعد على بالمغفرة ، اللهم اغفر لى ما وأيت « أى وعدت » من نفسى ولم تجد له وفاء عندى ، اللهم إغفر لى ما تقربت إليك بلسانى ثم خالفه قلبى . اللهم اغفر لى رمزات الالحاظ ، وسقطات الألفاظ ، وسهوات الجنان « أى القلب » وهفوات اللسان .

مناجاة :

يا من يرحم من لا يرحمه العباد ، ويا من يقبل من لا تقبله البلاد ، ويامن لا يحتقر أهل الحاجة إليه ، يامن لا يجبيه بالرد أهل الإلحاح عليه ، يا من يشكر على القليل ، ويجازى بالجليل ، يا من يدنو إلى من دنا منه ، يامن يدعو إلى نفسه من أدبر عنه ، يا من لا يغير

النعمة ، ولا يبادر بالنقمة ، يامن يثمر الحسنة حتى ينميها ، ويتجاوز عن السيئة حتى يعفيها ، انصرفت دون مدى كرمك الحاجات ، وامتلأت بفيض جودك أوعية الطلبات ، وخاب الوافدون على غيرك، وخسر المتعرضون إلا لك ، وأجدب المنتجعون إلا من انتجع فضلك، وها أنذا يا إلهى أؤمل بالوفادة ، فاسمع ندائى ، وأكرم من عندك منصرفى .

سفك الدماء بغير حلها :

إياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شىء أدعى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، أحرى بزوال نعمة ، ولا انقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها . والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله .

ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد ، لأن فيه قَود البدن . وإن ابتليت بخطأ ، وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة ، فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحنَّ بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى إلى أولياء المقتول حقهم .

وقال :

إنه ليس شىء أدعى إلى حلول النقم ، وزوال النعم ، وانتقال الدول وزوالها ، من سفك الدماء المحرمة . وإنك إن ظننت أنك تقوى سلطانك بذلك ، فليس الأمر كما ظننت ، بل تضعفه وتوهنه ، بل أكثر من ذلك تعدمه بالكلية .

مع عبد الله بن مسعود(*)

صفة حامل القرآن :

يمبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا التاس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا ، حكيما حليما ، عليما سكينا ، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافيا ، ولا غافلا ، ولا صخابا ، ولا صياحا ، ولا حديدا[1] .

القرآن مأدبة الله :

إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل ، فإن أصغر البيوت من الخير ، الذى ليس فيه من كتاب الله شيء ، وإن البيت الذى ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذى لا عامر له ، وإن الشيطان يخرج من البيت الذى تسمع فيه سورة البقرة[2]

(*) الشهاب : ٣٧ .

(١) الحلية : ١/١٣٠ .

(٢) الحلية : ١٣١-١٣١ .

حقائق عن العلم :

ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية .

تعلموا العلم ، فإذا علمتم فاعملوا .

إنى لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلمه ، للخطيئة يعملها[1]

الرجل الفارغ :

إنى لأمقت الرجل أن أراه فارغاً ، ليس فى شىء من عمل الدنيا ، ولا عمل الآخرة[2] .

العبادة باب الفتوح :

مادمت فى صلاة فأنت تقرع باب الملك ، ومن يقرع باب الملك يفتح له[3] .

ذروة الإيمان :

لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحبَّ إليه من الغنى ، والتواضع أحبَّ إليه من الشرف ، وحتى يكون حامده وذامُّه عنده سواء ...

وقد فسرها أصحاب عبد الله فقالوا : حتى يكون الفقر فى الحلال ، أحبَّ إليه من الغنى فى الحرام ، والتواضع فى طاعة الله ،

---

(١) الحلية : ١٣١ .

(٢)،(٣) نفسه ، ١٣٠ .

أحب إليه من الشرف فى معصية الله ، وحتى يكون حامده وذامه عنده فى الحق سواء[1] .

للقلوب إقبال وإدبار :

إن للقلوب شهوة وإقبالاً ، وإن للقلوب فترة وإدباراً ، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ، ودعوها عند فترتها وإدبارها[2] .

راحة المؤمن :

ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله ، فمن كان راحته فى لقاء الله فكأن قد[3] .

من جوامع الحكمة :

إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ ، وخير الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ونفس تنجيها ، خيرٌ من أمارة لا تحصيها ، وشر العذيلة حين يحضر الموت ، وشر الندامة ندامة القيامة ، وشر الضلالة، الضلالة بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، وخير ما ألقى فى القلب اليقين والريب من الكفر ، وشر العمى عمى

---

(١) نفسه : ١٣٢ .

(٢) نفسه : ١٣٤ .

(٣) نفسه : ١٣٦ .

القلب ، والخمر جماع كل إثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، والنوح من عمل الجاهلية ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبراً ، ولا يذكر الله إلا هجراً ، وأعظم الخطايا الكذب ، وسباب المؤمن عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يغفر يغفر الله له ، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يكفى أحدكم ما قنعت به نفسه ، وإنما يصير إلى أربعة أذرع ، والأمر إلى آخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، ومن يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرفه ينكر ، ومن يستكبر يضعه الله ، ومن يتولّ الدنيا تعجز عنه ، ومن يطع الشيطان يعص الله ، ومن يعص الله يعذبه .

(قلت) : ولعل هذه خطبة له رضى الله عنه جمع فيها بعض الآيات والأحاديث .

من دعائه رضى الله عنه :

اللهم إنى أسألك إيماناً لا يبيد ، ولا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ومرافقة النبى ﷺ فى أعلى جنة الخلد .

* * *

مع أبى الدرداء

- توفى سنة ٣٢ هـ -

زهده مع غناه :

كان عطاء أبى الدرداء رضي الله عنه أربعة آلاف درهم ومع ذلك لما مات لم يجدوا له إلا ثوباً واحداً فيه أربع وأربعون رقعة .

إحدى نصائحه :

قال له أحدهم : أوصنى ، قال له : اذكر الله فى السراء يذكرك فى الضراء ، وإذا أشرفت على شيء من الدنيا (أى إذا حصلت على شيء فيها) فانظر إلى ما يصير[١]

مع الناس :

إذا نابذت الناس نبذوك وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك ، فهب عوضك ليوم فقرك .

مع العصاة :

لا تبغض من أخيك المسلم إذا عصى إلا عمله فإن تركه فهو أخوك[٢] (أقول) وهذا من تمام الفقه بشريعة الله ، فإن الله تعالى

(١) الحلية : ٢٠٩/١ .

(٢) نفسه : ٢٢٥ .

أمر رسوله أن يتبرأ من العصاة بقوله : « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » أمره أن يتبرأ من أعمالهم لا منهم أنفسهم ، فهل فهم بعض المتنطعين الحاقدين .

العمل والهوى :

إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .

مع الإخوان :

إذا تغير أخوك واعوج فلا تتركه ، فإن الأخ يعوج تارة ويستقيم أخرى . قال الشعرانى : وكان هذا مذهب عمر بن الخطاب والنخعى وجماعة لا يهجرون عند الذنب ، ويقولون لا تحدثوا بزلة العالم فإنه يزل الزلة ثم يتركها !

مع الأغنياء البخلاء :

كان رضى الله عنه يقول :

لأن أقع من فوق قصر فأتحطم ، أحب إلى من مجالسة الأغنياء ! وإنما يقصد بهم هؤلاء الأغنياء البخلاء كهؤلاء الذين شحت أيديهم للتسلح ، مع ما يعلمون من قوة العدو وغدره ، وحاجة الجيش إلى المال والسلاح، أفلا ترى معاشرة هؤلاء الذين ماتت قلوبهم وضمائرهم إيذاء للروح ، والقلب يهون بجانبه أن يفقد الإنسان حياته وهو مرتاح القلب يقظ الضمير .

احذروا غمار الناس :

وكان يقول : اتقوا الله واحذروا غمار الناس ، فإنهم ما ركبوا

ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه .

الغنى الشره :

ويل لكل جمّاع ، فاغر فاه ، كأنه مجنون ، يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده ، لو يمكنه لوصل الليل بالنهار ، ويله من حساب غليظ وعذاب شديد[1] .

اعرف نعمة الله :

من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قلّ عمله ، وحضر عذابه . ومن لم يكن غنياً عن الدنيا ، فلا دنيا له . وكم من نعمة لله تعالى فى عرق ساكن[2] ، (أقول) وصدق الله حيث يقول : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[3] .

التفكير والتقوى :

تفكر ساعة خير من قيام أربعين ليلة ! ومثقال ذرة من بر مع تقوى ويقين أفضل وأعظم وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المقربين! وقد سئلت أم الدرداء : ما كان أفضل عمل أبى الدرداء؟

---

(١) نفسه : ٢١٧ .

(٢) نفسه : ٢١٠ .

(٣) إبراهيم : ٣٤ ومعنى لا تحصوها ، أى لا تطيقوا عدها لعدم تناهيها .

قالت : التفكر والاعتبار[1] .

لا تقربى الصدقة :

قالت زوجته يوماً : إن احتجت بعدك أفآكل الصدقة ؟ قال : لا . اعملى وكلى فإن ضعفت عن العمل فالتقطى السنبل ولا تأكلى الصدقة .

يـأهل دمشق :

يـأهل دمشق ؟ أنتم الإخوان فى الدين ، والجيران فى الدار ، والأنصار على الأعداء ، ما يمنعكم من مودتى ؟ وإنما مؤونتى على غيركم . مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ؟ وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل الله لكم به[2]، وتركتم ما أمرتم به ؟ ألا إن قوماً بنوا شديداً ، وجمعوا كثيراً ، وأملوا بعيدا ، فأصبح بنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا ، وجمعهم بورا ، ألا فتعلموا وعلموا ، فإن العالم والمتعلم فى الأجر سواء ، ولا خير فى الناس بعدهما[3] .

* * *

(١) الحلية : ٢٠٨/١ .

(٢) أى من الرزق .

(٣) الحلية : ٢١٣/١ ومعنى بورا : هالكا .

حمزة بن عبد المطلب(*)

عم الرسول وسيد الشهداء

فى ذكرى الشهداء ، حيث يمجد الملائكة فى السماء ضيفهم ، ويجدد المؤمنون فى الأرض على الجهاد والتضحية عهودهم ، وتقوم الأفراح فى جنان الخلد ، مبتهجة بالذين كتب لهم الخلود فى رياضها وأرباضها، فى هذه الذكرى يطيب الحديث عن سيد الشهداء حمزة عم الرسول وأسد الله ، وأسد رسوله ، وبطل الدعوه إلى الله، الذى خرَّ صريعاً فى قلب المعركة ، فكان استشهاده إذكاء النار المتوقدة فى قلوب المجاهدين ، وسبيلا إلى قيام صرح الحق ، من حيث ظن الظالمون أنهم يهدمونه ، ﴿ **والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[1].

اسمه وكنيته :

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى أبو عُمارة ، عم النبى ﷺ ، وأخوه من الرضاعة وأمه هامة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهى بنت عم آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ ، وهو شقيق صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ وأم الزبير بن العوام رضى الله

(*) الشهاب : ٣٠ .

(١) سورة الصف : آية ٨ .

عنهم :

مولده وجاهليته :

وُلد قبل رسول الله ﷺ بعامين ، وقيل بأربع سنين ، ولم يذكر التاريخ شيئا كثيرا عن حياته قبل الإسلام . وأبرز ما فى حياته حينذاك ، ما يقوله ابن هشام فى السيرة : « كان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة ، وكان صاحب قنص (صيد) يرميه ويخرج له . وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، إذا فعل لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم »[1] ، ويظهر أنه كان معروفا قبل إسلامه بحسن الخلق ، واستقامة السيرة ، وسخاء اليد ، نجد ذلك فى مرثية حذيفة بن غانم لعبد المطلب وفيها يذكر فضله وفضل أولاده حتى يقول عن حمزة :

وحمزة مثل البدر يهتز للندى   نقى الثياب والذمام من الغدر[2]

ولقد كان ممن خطب خديجة من أبيها خويلد للنبى ﷺ قبل بعثته ، إذ خرج أعمامه ، وفيهم حمزة إلى خويلد ، فخطبوا خديجة للرسول فتزوجها[3] .

إسلامه :

مرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ - يوما - عند الصفا ، فآذاه

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٩٢/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٤/١-١٧٥ والندى : الكرم .

(٣) ابن كثير - السيرة : ٢٦٣/١ والروض الأنف ٢٣٢/٢ .

وشتمه ونال منه بعض ما يكره ، من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره - وكان ذلك بعد البعثة بسنة أو أكثر - فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ، فلم يلبث أن قدم حمزة من الصيد ، متوشحا[١] قوسه ، فقالت له مولاة ابن جدعان : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) ؛ وجده ها هنا جالسا ، فآذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه ابن أخيك . فغضب حمزة وأسرع نحو أبى جهل ، فلقيه فى مجمع قريش ، فضربه بالقوس ، فشجه شجة منكرة ثم قال له :

أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة ليضربوه، انتصارا لأبى جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا[٢]. ومضى حمزة بعد ذلك إلى بيته يفكر فيما فعل . وأغلب الظن أنه كان قبل هذه الحادثة يفكر فى دعوة ابن أخيه محمد ﷺ ، وإنه كان يميل إليها ، ولكنه لم يكن يفكر فى الإيمان بها سريعا على الوجه الذى أعلنه أمام قريش ، حين ضرب أبا جهل ، ومن ثم بات مؤرقا لم تكتحل عينه بنوم ، فلما أصبح، أتى الكعبة، وتضرع إلى الله أن يشرح صدره للحق ، ويذهب عنه الريب ، فما أتم دعاءه حتى انجاب الباطل

---

(١) متوشحا : متقلدا .

(٢)سيرة ابن هشام : ١/٢٩١-٢٩٢ .

عن قلبه ، وشرح الله صدره للإسلام . وغدا على الرسول فأخبره بما كان من أمره ، فوعظه الرسول ، وتلا عليه القرآن فإذا بحمزة يخشع قلبه ، وتدمع عينه .. إذا به يبكى ثم يقول للرسول :

« أشهد أنك الصادق فى دعوتك ، فأظهر يابن أخى دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء ، وأنا على دينى الأول[1]، وثبت حمزة بعدئذ على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ ، وبدأ يخط فى سجل الخلود صحائفه النورانية ...

مواقفه مع الرسول :

كان لإسلام حمزة صدى عظيم فى أوساط قريش ، فحمزة كما قلنا من قبل ، كان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة[2] .

وأيقنت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ، وفكروا أن يعرضوا على الرسول عروضا مغرية ، لعلها تنال من عزيمته فى دعوته الجديدة ، بعد أن أعلن حمزة إسلامه ، وغدا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون ، ولكن الرسول استمر فى دعوته ، حتى كتب الله لعمر بن الخطاب أن يسلم أيضا ، وقصة إسلامه مشهورة ، لا مكان لبسطها الآن، وكلنا نذكر منها ما يتصل بحمزة، وشدة شكيمته فى الحق ، ذلك أن عمر ما كاد يسمع القرآن فى بيت أخته فاطمة من ختنه[3] سعيد بن زيد - حيث

---

(١) سيرة ابن كثير : ١/٤٤٥-٤٤٦ .

(٢) يقال : فلان شديد الشكيمة : إذا كان شديد النفس ، أنوفا ، أبيا .

(٣) الختن: كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ. ختن الرجل-عند العامة-زوج ابنته.

كان « خباب بن الأرت »[1] يقرئهما القرآن - حتى رق قلبه وسأل أن يدلوه على مكان الرسول ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا : « دار الأرقم بن أبى الأرقم » فأخذ عمر سيفه ، حتى وصل إلى دار الأرقم ، فضرب الباب . فقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرأى عمر متوشحا بالسيف ، فرجع إلى الرسول وهو فزع ، وأخبره بمقدم عمر متوشحا سيفه فقال حمزة عندئذ : فأْذنْ له يارسول الله ؛ فإذا كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه ، فأذن له الرسول[2] ... وأسلم عمر ... وقوى شأن صحابة الرسول المستضعفين ، واستمرت معركة الحق فى شدتها حتى كانت الهجرة ، وكان حمزة مع من هاجر إلى المدينة ، وآخى الرسول بينه وبين زيد بن حارثة ، وعقد له الرسول أول لواء عقده فى الإسلام، بعد استقراره بالمدينة، فقد أرسله فى سرية إلى « سيف البحر » على رأس ثلاثين راكبا من المهاجرين ، فلقى أبا جهل مع ثلاثمائة من المشركين ، وأراد أن يقاتلهم بمن معه من العدد القليل ، ولكن « مَجْدىّ بن عمر الجهنى » حجز بينهم ، وكان موادعا للفريقين فانصرف بعضهم عن بعض من غير قتال[3] .

---

(١) صحابى ، من السابقين ، قيل : أسلم : سادس ستة . وهو أول من أظهر إسلامه . كان فى الجاهلية قينا يعمل السيوف بمكة . ولما أسلم استضعفه المشركون فعذبوه ليرجع عن دينه ، فصبر ، إلى أن كانت الهجرة . ثم شهد المشاهد كلها ، ونزل الكوفة فمات فيها عام ٣٧ هـ - ٦٥٧ م وهو ابن ٧٣ سنة . لما رجع على من صفين مر بقبره ، فقال : رحم الله خبابا ، أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وعاش مجاهدا . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٢ حديثا . الأعلام للزركلى : ٢/٣٤٤ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١/٣٤٥-٣٤٦

(٣) سيرة ابن كثير : ٢/٣٥٩ .

فى معركة بدر :

وتكون معركة بدر أول معركة فى الإسلام ، ويصول فيها البطل المغوار حمزة أسد الله ، فيقتل « الأسود بن الأسد المخزومى » وكان رجلا شرسا سيء الخلق ، ثم يقتل « شيبة بن ربيعة » من أبطال المشركين ، ثم يجول بالسيف يمينا وشمالا ، ويوقع بأبطال المشركين وصناديدهم ، ما لم يعهدوه من بطل من قبل ، حتى ليقول أمية بن خلف بعد أن قبض عليه المسلمون : من ذلك الرجل المعلم بريشة نعامة على صدره ؟ فيقول عبد الرحمن بن عوف : ذاك حمزة بن عبد المطلب . فيقول أمية : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ...

معركة أحد :

وتكون بعد ذلك معركة أحد ، ويستبسل فيها حمزة كما استبسل فى بدر ، وتكثر ضحاياه من أعداء الإسلام ، حتى قالوا : إنه قتل فيها ما يزيد على ثلاثين مشركا .. ثم يكتب على الأسد أن يخر صريعا ... استشهد على يد « وحشى غلام جبير بن مطعم »[1]

---

(١) قال الرسول ﷺ لوحشى لما أسلم : : « غيب وجهك عنى ياوحشى لا أراك » كما ورد فى شرح المواهب زالبخارى : ٣٧/٥ والإصابة : ٥٩٤/٣ وفيه فى الاستيعاب لابن عبد البر : ٦٠٨ . وذلك مؤذن بأنه لا يصان عما يعاقب عليه .

وقد شهد اليرموك ، وشارك فى قتل مسيلمة الكذاب ، وقيل إنه رماه بحربته التى قتل بها حمزة ، وكان يقول : قتلت بحربتى هذه خير الناس - يعنى حمزة - وشر الناس ، يعنى مسيلمة . سكن حمص ومات فيها . انظر سيرة ابن هشام : ٧٣/٣-٧٤ .

أصابه بالسهم فى أسفل بطنه ، فخر صريعا رضى الله عنه ، وجاءت هند زوجة أبى سفيان ، فشقت بطنه ، وأخرجت قلبه ، فلاكتـه ، تشفيـا وانتقامـا ، ثم مثل به المشركـون فجدعوا أنفه وأذنيه[1] ...

حزن الرسول على استشهاده :

وخرج رسول الله يلتمسه بين القتلى ، فوجده ببطن الوادى ، على تلك الصورة المفجعة ، فحزن عليه حزنا شديدا ، وقال : لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت موقفا قط أغيظ إلي من هذا[2]، جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله[3] .

ثم قال : لولا أن تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير[4]، ثم توعد الرسول قريشا بالتمثيل بثلاثين رجلا إن أمكنه الله منهم[5]، ولكن الله نهاه عن المثلة بالقتلى ، فعفا وصبر ، ثم أمر الرسول بحمزة فسجى ببردة ، ثم صلى عليه ، ثم أتى بالقتلى ، فوضعوا إلى جانب حمزة فصلى عليهم وعليه معهم ، حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة[6] . وأقبلت صفية أخته لتنظر إليه ، فقال الرسول لابنها الزبير « القها فأرجعها لئلا ترى ما يغيظها » فقال لها : يا أماه ! إن رسول الله يأمرك أن ترجعى. قالت: و لم؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى، وذلك فى الله فما أرضانا

---

(١) سيرة ابن هشام : ٩١/٣ .

(٢،٣،٤،٥) سيرة ابن كثير : ٧٩/٣-٨٠ وسيرة ابن هشام : ٩٥/٣ فيما بعدها .

(٦) سيرة ابن هشام : ٩٧/٣ .

بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ! فلما جاء الزبير إلى الرسول وأخبره بما قالت ، قال له : خل سبيلها ، فأتته ونظرت إليه ، ثم صلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن ، وكان ذلك فى النصف من شوال لعام ثلاث من الهجرة[1] .

وبعد ، فما أروع هذا الاستشهاد ، وما أروع هذه الصحيفة من صحائف البطولات فى تاريخ الدعوة ! وما أروع موقف صفية عمة النبى وأخت حمزة ! ألا إنها أمثلة خالدة كتب الله ألا تكون بتراء فى تاريخ الدعوة ! وقد وصلها فى العصر الحديث شهداء الإسلام : البنا وفرغلى وعودة والطيب وطلعت ودوير وعبد اللطيف ...

فرحمة الله على سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب .. ورحمة الله على أكرم الشهداء فى عصرنا الحاضر : البنا وإخوانه ، والملتقى مع رسول الله وصحبه وجنده وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

---

(1) سيرة ابن هشام ٣/٩٧ .

خالد بن الوليد(*)

سيف الله وسيف رسوله

« فى أحاديث السلاح والمعارك والحروب ، تبرز أسماء القادة الفاتحين الخالدين فى تاريخنا ، نجوما مضيئة ترسم لنا الطريق ، وتشد منا العزائم . ومن أولى بخالد بن الوليد أن يكون حديث الأمة فى هذا الأسبوع - أسبوع التسلح - وهو القائد الذى لم يهزم والفاتح الذى لم يغلب ، والعبقرى الذى لا تزال خططه الحربية فى معاركه الكبرى مثار إعجاب الشرق والغرب ، ذلك هو خالد ، فاتح العراق والشام ، وقاهر رستم وهرقل .. » .

اسمه ولقبه :

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب القرشى المخزومى ، يلتقى مع رسول الله ﷺ فى الأب السابع له عليه الصلاة والسلام ، وهو مرة ابن كعب ، وأمه عصماء بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت أم الفضل امرأة العباس عم النبى ﷺ .

ولادته وبيئته :

لا يذكر المؤرخون عام ولادته فى نص صريح ، وإن كان يستنتج

(*) الشهاب : ٣١ .

من مجموع ما يذكرونه ، أنه ولد قبل البعثة النبوية بسبع وعشرين سنة ، فتكون ولادته بعد ولادة الرسول بثلاثة عشر عاما .

ولد فى مكة عاصمة العرب الدينية ، من قبيلة بنى مخزوم ، وهى من أشرف قبائل العرب، كانت تزاحم بنى هاشم فى الشرف والفروسية والثروة ، حتى إنه كان لها فى غزوة بدر مع المشركين مائة فرس وخمسة آلاف مثقال من الذهب .

وكان أبوه الوليد من أشراف قريش وعظمائها ، وذوي الرأي الواضح فيها . وقد كان أحد حكامها فى الجاهلية ، وهو الذى أشار عليها يوم اختلف فيمن يضع الحجر الأسود ، أن تحكم أول قادم نحو الصفا ، فكان هو رسول الله ﷺ . وكان يعادل قريشا فى كسوة الكعبة ، فهى تكسوها عاما ، وهو يكسوها وحده عاما . وكان يطعم الطعام فى منى ويمنع أن توقد نار غير ناره للإطعام ، وهو الذى أرسلته قريش لتفاوض الرسول فى ترك دعوته ، فلما استمع إلى القرآن ملكته روعته وإعجازه ، فرجع إلى قريش وهو يقول : لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما يقوله بشر قط ؛ إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لَمُثْمِر ، وإن أسفله لَمُغدِق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه[1] ، ولم يسلم يومئذ . قالوا : ولو أسلم لأسلمت قريش كلها ، وكأنما ادخر الله شرف الدخول فى الإسلام إلى ابنه خالد

(١) سيرة ابن كثير : ٤٩٩/١ — وفى تفسيره : ٤٤٣/٤ . والطلاوة — بضم الطاء وفتحها وكسرها — : الحسن والرونق — المغدق : الكثير ، المخصب .

ليكون عظيم بنى مخزوم فى الإسلام وسيد القادة الفاتحين فى التاريخ .
وكان لبنى مخزوم فى الجاهلية الشهرة العسكرية ، والقيادة الحربية .

جاهليته :

كان لخالد فى الجاهلية قبل الإسلام الزعامة الحربية ، وكان له « القبة » و « الأعنة » فأما القبة ، فإنهم كانوا يضربونها ، ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش . وأما الأعنة ، فإنه كان يقود خيل قريش فى الحرب ، وبأمره يأتمر الفرسان الأبطال .

ولم يكن خالد يمتهن مهنة أو صناعة فى جاهليته ، وإنما كان ينعم بثروة أبيه الضخمة ذات البساتين والقرى ، فعاش منصرفا إلى المغامرات ، مغرما بأعمال الفروسية ، وركوب الخيل ، والعدو ، والسباق ، والصيد ، صبورا فى البأس والشدة ، تتجلى فى أخلاقه صفات القائد الشجاع .

لم يسرع خالد إلى الإسلام ، بل ورث عن أبيه عداوة الدين الجديد ، وكان - كرجل عسكرى - لا يعرف الكلام ولا الجدل ، فلم يؤثر عنه أنه اشترك فى نقاش مع النبى أو المسلمين الجدد ، ولكنه كان قائد خيل المشركين فى بدر وأحد ، أما « بدر » فلم يؤثر عنه فيها ما يدل على نجاح أو ظفر ، وأما « أحد » فقد استطاع أن يحول فيها هزيمة المشركين إلى نصر ، بعد أن رأى خلو ظهر المسلمين من الرماة ، فهاجمهم من خلفهم ، وهم منصرفون إلى جمع الغنائم ، وكان ما نعلمه جميعا من جرح الرسول ، وانهزام المسلمين ...

إسلامــه :

أرجح الأقوال فى إسلامه : أنه أسلم عام ثمان من الهجرة فى شهر صفر ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية ، وقبيل فتح مكة بستة أشهر . أما قصة إسلامه ، فلنترك ذلك إلى خالد نفسه يحدثنا كيف أسلم . قال خالد رضى الله عنه :

« لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى الإسلام ، وحضرنى رشدى فقلت :

قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ ، فليس فى موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمداً سيظهر . فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية ، خرجت فى خيل قريش ، فلقيت رسول الله فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، وصلى بأصحابه الظهر أمامنا . فهممنا أن نغير عليهم ، فلم يعزم لنا – وكان فيه خيرة – فاطلع على ما فى أنفسنا من الهم به ، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا وقلت : الرجل ممنوع ، وافترقنا ، وعدل عن سنن خيلنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ، ودافعته قريش بالراح، قلت في نفسى : أى شىء بقى؟ أين أذهب؟ أإلى النجاشى؟. فقد اتبع محمدا ،وأصحابه آمنون عنده ؟ أفأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ؟ أفأقيم فى عجم ؟ أم أقيم فى دارى بمن بقى ؟ وبينما أنا على ذلك إذ دخل رسول الله مكة فى عمرة القضية

(القضاء بعد صلح الحديبية) وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى ﷺ تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلى كتابا فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتى الله به . فقال (رسول الله) : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره . فاستدرك ياأخى ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة » قال خالد :

فلما جاءنى كتابه نشطت ، للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله ﷺ عنى .. إلى أن يتحدث خالد عن تصميمه على الخروج إلى الرسول للإسلام ، وكيف أراد أن يصطحب معه أحدا من قريش إلى الرسول . فعرض الإسلام على صفوان بن أمية فأبى ، ثم عرضه على عكرمة بن أبى جهل فأبى ، ثم لقى عثمان بن طلحة فقال له ابن طلحة : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، فخرجا معا ، ثم لقيا عمرو بن العاص فى الطريق ، فسار معهم حتى وصلوا إلى المدينة ، أول يوم من صفر سنة ثمان من الهجرة ، فلما علم بهم - عليه الصلاة والسلام - قال : « رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها »[1] ثم لقى خالد رسول الله ، فسلم عليه

---

(١) أسد الغابة : ٢/١٩ .

بالنبوة ، وشهد شهادة الحق ، فقال له عليه السلام : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير » . ثم بايع الرسول وقال له : « استغفر لى ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله » فقال : إن الإسلام يجب (أى يقطع ما كان قبله) قال خالد : يارسول الله على ذلك ؟ قال الرسول : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيهَ من صد عن سبيلك » . ثم تقدم عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، فأسلما وبايعا رسول الله ﷺ .

قال خالد فى ختام هذا الحديث : « فوالله ما كان رسول الله ﷺ ، من يوم أسلمت يعدل بى أحدا فيما يحزبه »[1] .

وهنا ابتدأ خالد يدخل التاريخ من بابه الواسع العظيم ...

---

(١) سيرة ابن كثير : ٣٠/٤٥٠-٤٥٣ .

الحديبية : قرية بينها وبين المدينة تسع مراحل ، وبينها وبين مكة مرحلة واحدة . سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التى بايع الرسول ﷺ تحتها . وقال الخطابى فى أماليه : سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت فى ذلك الموضع . وفى الحديث : إنها بئر ، وبعض الحديبية فى الحل ، وبعضها فى الحرم . (عن معجم البلدان : ٣٢٩/٢) - عسفان : على وزن عثمان ، موضع على مرحلتين من مكة - دافعته قريش بالراح : مثل يضرب فى المنع - أوضع : أدبر وحارب ، ومعنى الموضع (بضم الميم) : عامل بلا جدوى - السنن : الطريق والوجهة - النجاشى ، هو النجاشى ابن الأصيحم بن أبجر ملك الحبشة ، آوى المهاجرين إلى الحبشة ، وأسلم على أيديهم . عمرة القضية ، أى عمرة معاهدة الحديبية ، وكانت فى ذى القعدة سنة سبع ، وكانت مكان العمرة التى صد الرسول عنها سنة ست للهجرة .

وسنتحدث فى الحديث المقبل عن مواقفه مع رسول الله حتى توفى عليه الصلاة والسلام[1] ...

* * *

(١) لم نقف على مثل هذا الحديث . ولعل عوائق المرض وتزاحم الأعباء حالت دون ذلك ، رحم الله أستاذنا المؤلف رحمة واسعة وجزاه أحسن الجزاء كفاء أعماله ونواياه .

العز بن عبد السلام(*)

منى العالم الإسلامى فى القرون الثلاثة : الخامس والسادس والسابع، بسلسلة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، وأهمها حروب الصليبيين والتتار ، مما أدى إلى تضعضع الكيان السياسى الإسلامى ، وانتشار الفساد فى مختلف فئات المجتمع . وأصاب المحيط العلمى رذاذ من ذلك الفساد والانهيار ، فسكت أكثر العلماء عن الجهر بالحق ، وسايروا الحاكمين رغبة أو رهبة ، واعتزل كثير منهم الحياة العامة تحت تأثير الدعوات الصوفية التى انتشرت بقوة فى أنحاء العالم الإسلامى كله ، وكان أقصى أمانى الصالحين منهم أن ينجوا بأنفسهم من الفساد ، ويسلموا من معايشة الشر ، والرضا بالمنكر .

فى هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم « سلطان العلماء » عز الدين بن عبد السلام ، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهب على قلوب اليائسين ، وعزمة من عزمات الإيمان تنبعث فى أوساط المتخاذلين ، وومضة من ومضات النور تضيىء الطريق للمدلجين فى دياجير الظلام ، وسوطا من سياط الحق يلهب الله به ظهور المتكبرين والمتجبرين والظالمين .

(*) المقدمة التى كتبها الأستاذ السباعى رحمه الله فى ١٤ ذى القعدة ١٣٧٩ لكتاب « العز ابن عبد السلام » تأليف السيد الأستاذ رضوان على الندوى .

إن العز بن عبد السلام من أعظم علماء الإسلام الذين تهزنى دراسة آثارهم وسيرتهم هزا عنيفا . ذلك لأنه شخصية فذة ، قد آتاه الله من العظمة ، ما لم يؤت عالما غيره فى عصره ، وأستطيع تلخيص مظاهر عظمته فى هذه النواحى الثلاث .

أولا : جرأته فى الحق ، وشدته على المبطلين ، وإخلاصه النصح لله ولرسوله وللمسلمين ، إخلاصا أورده المهالك ، ولكنه كان فى نفسه أعظم من أن يستحضر الخوف من المهالك . لقد كان يصور نفسه على حقيقتها قوله لابنه – وقد هدده كبير الأمراء بالقتل ، لأنه أصدر العزم على بيعهم علنا أمام الجمهور :– يابنى ! إن أباك أحقر من أن يقتل فى سبيل الله ! ... ولقد جهر بالحق مرة أمام سلطان مصر نجم الدين أيوب ، وخاطبه باسمه المجرد والدولة كلها واقفة بين يديه فى حفل استعراض عسكرى كبير . وتسامع طلابه بالخبر ، فلم يصدقوا ذلك ، وسأله أحدهم عن صحة الخبر ، فأكده الشيخ ، فقال له تلميذه : ياسيدى : أما خفت السلطان ؟ . فأجاب الشيخ على الفور : والله يا بنى ! لقد استحضرت عظمة الله فى نفسى ، فرأيت السلطان أمامى كالقط !... .

هذا رجل عظيم !... لا من الذين يستمدون عظمتهم من مقاييس الدنيا الزائلة ، بل من الذين تنبع عظمتهم من حقائق الحياة الخالدة ، والمتصلة بخالق الكون والحياة ، فأية عظمة تساوى هذه العظمة ؟! .

ثانيا : جهاده فى سبيل الله ، وتحريضه الناس على قتال التتار ،

وخوضه المعارك على كبر سنه وحاجة المسلمين إليه ولكن الرجل لم يكن يراعى سنه ، ولا حاجة المسلمين إليه ، بقدر ما كان يراعى واجبه وحاجته إلى رضا الله عنه .

ثالثاً : غوصه العظيم على أسرار الشريعة ، وإحاطته بمقاصدها ، بل بمقصدها الأعظم وهو « رعاية مصالح العباد » . لقد وصل إلى لب الشريعة وفقهها حين آمن بهذه الحقيقة ، فإذا بأحكام الشريعة تبدو له حبات فى عقد منتظم منسجم ، وإذاهو يستذكرها فى كتابه العظيم « قواعد الأحكام » استذكار الإمام الفقيه الذى استمد علمه من لدن حكيم عليم . فتبارك الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

تلك هى – فى رأيى – أهم مظاهر عظمة الشيخ العز بن عبد السلام ، ولقد كانت واحدة منها كافية لأن تبوئه مكاناً علياً فى قلوب معاصريه ، وتستأثر بحبهم ، والتفافهم حوله ، والتماسهم بركاته ، فكيف إذا كان ثلاثتها قد اجتمعت فيه فى عصره المضطرب الحائر ؟! .

ولقد كانت واحدة من عظماته الثلاث كافية لتخليده فى رحاب العظماء الخالدين من رجال الدنيا والدين ، فكيف وقد كانت له كلها لا تحيف واحدة منها على الأخرى ، ولا يكسف نور واحدة منها نور الأخرى ؟!

أعود فأقول : إنى من المعجبين بالشيخ العز بن عبد السلام

المرددين لنوادره فى الجرأة والشجاعة ، والجهر بالحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع علم واسع ، وفهم دقيق لأسرار الشرع ، وروحانية مشرقة متصلة بالله ، تلمسها فى كل سطر من سطور مؤلفاته العلمية ، وخاصة كتابه « قواعد الأحكام » . وكنت مصمماً أن أتفرغ يوماً لدراسة هذا العالم العظيم ، دراسة تحليلية دقيقة ، وإخراج كتبه للناس إخراجاً فنياً حديثاً ، ولكن زحمة الحياة ، ومشاكل العلم التى يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، حالت دون تحقيق هذه الأمنية فيما مضى من العمر . وكأن القدر كان قد ادخر شرف الكتابة عن هذا العالم العظيم ، لأخينا النجيب السيد رضوان على الندوى ، إذ جعل موضوع رسالته لأخذ إجازة كلية الشريعة بجامعة دمشق هو هذا الموضوع نفسه ، وقام بجهود مشكورة فى البحث والتنقيب يلمسها قارىء بحثه هذا ، وحسبه أنه أول من أفرد لترجمة هذا الإمام العظيم كتاباً خاصاً به ، من حيث اكتفى المؤرخون السابقون بكتابة بضعة أسطر أو صفحات ، هى كل ما كتبوه فى ترجمته رضوان الله عليهم .

وإنى لأسأل الله أن يجزل مثوبة المؤلف ويوفقه لمتابعة البحث والدراسة عن هذا الشيخ العظيم وآثاره وآرائه ، حتى يخرج للناس كتاباً مستوفى ، يليق بعظمة هذا الإمام ومكانته بين الخالدين .

* * *

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦ هـ

ـ ١ ـ

حياته فى سطور :

ننقل فيما يلى : ما جاء فى (الأعلام) للزركلى : ٢٥١/٣ عن الأمير شكيب أرسلان – رحمه الله رحمة واسعة :–

شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان ، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة . عالم بالأدب ، والسياسة . مؤرخ ، من أكابر الكتاب ، يُنعت بأمير البيان . من أعضاء المجمع العلمى العربى .

ولد فى الشويفات « بلبنان » وتعلم فى مدرسة « دار الحكمة » ببيروت ، وعين مديرا للشويفات سنتين ، فقائم مقام فى « الشوف » ثلاث سنوات . وأقام مدة بمصر . وانتُخب نائبا عن حوران فى مجلس « المبعوثان » العثمانى .. وسكن دمشق فى خلال الحرب العامة الأولى ، ثم « برلين » بعدها وانتقل إلى « جنيف » بسويسرة ، فأقام فيها نحو ٢٥ عاماً . وعاد إلى بيروت ، فتوفى فيها ، ودُفن فى الشويفات .

عالج السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية ، وكان من أشدّ المتحمسين من أنصارها . واضطلع بعد ذلك بالقضايا العربية ، فما

ترك ناحية منها إلا تناولها تفصيلا وإجمالا : وأصدر مجلة باللغة الفرنسية فى جنيف ، للغرض نفسه . وقام بسياحات كثيرة فى أوربة وبلاد العرب . وزار أمريكا سنة ١٩٢٨ وبلاد الأندلس سنة ١٩٣٠ وهو فى حله وترحاله لا يدع فرصة إلا كتب بها مقالا أو بحثا. جاء فى رسالة بعث بها إلى صديقه السيد هاشم الأتاسى عام ١٩٣٥ م، أنه أحصى ما كتبه فى ذلك العام ، فكان ١٧٨١ رسالة خاصة ، و ١٧٦ مقالة فى الجرائد ، و ١١٠٠ صفحة كُتب طبعت . ثم قال : وهذا محصول قلمى فى كل سنة .

وعرَّفه « خليل مطران » بإمام المترسلين ، وقال : « حضرى المعنى ، بدوى اللفظ ، يحب الجزالة حتى يستسهل الوعورة ، فإذا عرضت له رقة ، وألان لها لفظه ، فتلك زهرات ندية ملية ، شديدة الريا ، ساطعة البهاء ، كزهرات الجبل . » قلت : كان ذلك قبل الأعوام الأخيرة من حياته ، ثم انطلق فتحول إلى الأسلوب الحضرى فى لفظه ومعناه

من تصانيفه :

- الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية : فى عشرة مجلدات طُبع منها ثلاثة مجلدات .
- غزوات العرب فى فرنسة وشمالى إيطالية وفى سويسرة – ط .
- لماذا تأخر المسلمون ؟ – ط .
- الارتسامات اللطاف – ط .

- رحلة إلى الحجاز سنة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م .
- شوقى ، أو صداقة أربعين سنة — ط .
- السيد رشيد رضا ، أو إخاء أربعين سنة — ط .
- أناطول فرانس فى مباذله — ط .
- حاضر العالم الإسلامى — ط. وهو فى أربعة أجزاء، أصله كتيب من تأليف لو ثروب ستودارد الأمريكى، نقله إلى العربية عجاج نويهض، وعلق عليه الأمير شكيب هوامش وفصولا جعلته أضعاف ما كان عليه.
- تاريخ لبنان — خ .
- رحلة إلى ألمانية — خ .
- مذكراته — خ .
- ملحق للجزء الأول من تاريخ ابن خلدون — ط .
- تعليقات له فى الاجتماع ، وأنساب العرب ، وتاريخهم ، والخلافة . ثم تاريخ الترك والدولة العثمانية بإسهاب إلى سنة ١٩١٤ م .
- الشعر الجاهلى : أمنحول أم صحيح النسبة ؟ — ط . رسالة صدر بها كتاب النقد التحليلى لمحمد أحمد الغمراوى .

رواية آخر بنى سراج لشاتو بريان — ط . ترجمها عن الفرنسية ، وأضاف إليها خلاصة تاريخ الأندلس ، إلى ذهاب غرناطة ، ورسالتين قديمتين فى الموضوع .

- وله نظم كثير جيد ، نشر منه « الباكورة » — ط ، مما نظمه فى صباه .
- و « ديوان الأمير شكيب — ط » مما نظمه بعد الأول . وكان يجيد الفرنسية والتركية ، وله إلمام بالإنكليزية والألمانية .

ولعارف الكندى ، ومحمد على الحومانى رسالتان فى سيرته .

جيل من المفاخر(*)

يحملونه في نعش ويغيبونه في رمس

ـ ٢ ـ

« نص الكلمة الرائعة التي كان قد ارتجلها فقيد الإسلام الدكتور السباعي على قبر الأمير شكيب أرسلان ساعة دفنه عليهما رحمة الله بتاريخ العاشر من كانون الأول سنة ١٩٤٦ م، وهذه الكلمة جديرة بأن تقال اليوم في صاحبها ، كما أنها تعرض جانباً من أدبه الرفيع ، وبلاغته حين الارتجال ، مما لا يتأتى للأدباء الكبار إلا بعد طول تدبر وعناء ... » .

سلام عليك أبا غالب
أمير الجهاد أمير القلم
هتكت برأيك حجب الظلا
م وثرت إباء إذا الخطب عم
وطوفت في الأرض تبغي السلا
م لقومك والحق ممن ظلم

(١) حضارة الإسلام : س ٥ - ع ٤-٦٥ .

فخضت الغمار وصنت الذمار
وكنت الإمـام وكنت العلـم
وما زلت تفضح كيـد الألـى
بغوا فى البلاد وخانوا الذمم
وتـرشـد قـومك للواضحـات
تنير العقول وتذكى الهمم
إلى أن أصاخ لك المسلمو
ن ولبى نداك أسـود الأجـم
فـآن لجسمك أن يستريـح
وتهجـر روحـك دنيـا الألـم
أصبت بدنياك مجد الخلود
وعنـد الإله الثـواب العمم

إيه أبا غالب ! يا مالىء الدنيا وشاغل الناس ! يا من كنت إلى آخر أيامك فى الحياة تنصح وترشد وتعلم وتوقظ ، فما عرف فكرك الجمود ، ولا جسمك الراحة ولا قلمك الركود ، وإنما كنت ثورة جامحة ، تزلزل أركان الاستعمار بما تنفخه فى العرب والمسلمين من آيات النار والنور ، وهى القوة والحياة ، فكافأك العرب والمسلمون بالحب والإعجاب ، وعاقبك المستعمرون بالتشريد والاغتراب ، أما هؤلاء فقد رأوا بأعينهم أن ما بيتوه لهذه الأمة من كيد أفسدته عليهم الأقدار ، وأما أنت فلقد رأيت فى حياتك ثمرة جهادك ! لقد رأيت أوطان العروبة تحطم القيود وتسير نحو المجد ، وبلاد الإسلام تسرى

فيها عزة عنيفة من اليقظة والوعى النهوض ، وها أنت يا أبا غالب تدفن فى أرض تحررت من الأجنبى ، فلم يبق له فيه جيش ولا مستشارون ولا سلطة ولا أمر ، ولطالما أعلنت على جيش الاستعمار وسلطانه حرباً عواناً وكنت لآمال قومك فى الجلاء حجة وتبياناً . ولو قدر لك أن تعود إلينا لحظات لرأيت هذه الجموع تبكيك بكاء الثكلى ، ولرأيت فى بلاد العروبة والإسلام مناحات ومآتم ، وقد خلف نعيك فى كل عين دمعة ، وفى كل قلب حسرة ، وفى كل نفس زفرة ، فسلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين ، وسلام عليك إلى يوم الدين .

يأيها المسرعون بفقيد العروبة والإسلام ! تمهلوا قليلا ! رويدكم لا تعجلوا ! إنكم لا تحملون على أعناقكم رجلا ، وإنما تحملون جيلا من المفاخر أعيا التاريخ إحصاؤها وتسجيلها . وإنكم لا تدفنون إنسانا كسائر الناس ، إنما تدفنون أمة ، وتغيبون فى أطباق الثرى آمال شعوب ، ورجاء أجيال كانت كلها ترى فى الأمير إمامها وعلمها وباعث نهضتها ومبدد ظلمات حياتها .

قفوا يا حملة النعش ! فما ينبغي للأب الروحى للجيل المؤمن ، والقائد الأمين للركب المسرع ، والمعلم الثبت للأمة المتعطشة للحقيقة ، والخصم اللدود للقوى الباغية المستعمرة ، ما ينبغى له أن يدفن هنا ، فى مكان ناء وفى أرض جرداء ، إن مكانه مع أبطالنا الخالدين ، إن مكانه فى دمشق مع صلاح الدين ! لن يدفن إمام

العروبة والإسلام إلا فى عاصمتها ، ولا يستقر زعيم أبطالنا فى تاريخنا الحديث إلا مع زعيم أبطالنا فى تاريخنا القديم ، ليس مكان الأمير المجاهد إلا بجانب السلطان المجاهد ، هناك يجب أن يرقد جسمه الرقدة الأخيرة . أما حقيقته ، أما تعاليمه ، أما صرخاته ونداءاته ، أما شكيب أرسلان فإنه لن يموت ولن تنطفىء شعلته ، إن محله فى القلوب ، وإن مثواه فى النفوس التى انطوت على حبه ، وسنورث هذا الحب للأجيال المقبلة جيلا بعد جيل ما دام فى الدنيا عرب ، وفى الدنيا مسلمون ...

يا آل الفقيد وقرابته وبنى عشيرته ! لستم أنتم الذين فقدتموه فحسب ، ولستم فى المصيبة به وحدكم تبكون وتألمون ، وليس ابنه وحده هو الذى أصيب باليتم من بعده ، إنما فقدته الرجولة والبطولة والحقيقة ، وإنما أصيب به اليعربيون والمسلمون وأبناء الشرق قاطبة ، وإنما أصيب باليتم أبناؤه الذين أفاقوا فى الحياة على عذب ألحانه ، وسحر بيانه ، وآيات جهاده فى قلمه وتبيانه . نحن الشباب المؤمن فى دنيا العروبة والإسلام .

نحن الذين فقدناه فإلينا قدموا العزاء ، ومنا انتظروا البكاء ، وفى قلوبنا فتشوا عن اللوعة والألم ، ولنا فاسألوا الصبر والسلوان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

ياروح الفقيد العظيم ! انطلقى اليوم فى دنيا الخلود . فلطالما كنت فى هذه الدنيا حبيسة سجينة ، وغردى ما شئت أن تغردى ! فلطالما كان تغريدك فى دنيانا ألما بعثاً وإيقاظا ، وانطلقى ياروح الفقيد

فى دنيا لا تعرف الظلم ولا البغى ولا المكر ولا العدوان ، وابحثى عن أرواح أبطالنا الخالدين فبلغيهم الشكوى ، وبثى إليهم الأحزان ، وانقلى إليهم من دنيانا ما يكون أعجوبة الأعاجيب فى دنياهم ! غردى يا روح الأمير وانطلقى وارتعى ، ثم رفرفى علينا دائما وأبدا ، وذكرينا الدين فى أسمى معانيه ، والوطنية فى أقوى مظاهرها ، والعلم فى أوسع آفاقه ، والوفاء فى أروع آياته ، سلام عليك يا روح الأمير ورحمة الله ورضوانه وبركاته .

* * *

الأمير شكيب أرسلان(*)

ـ ٣ ـ

الأمير شكيب أرسلان ، من أبرز أعلام الإسلام فى النصف الثانى من هذا القرن (الرابع عشر الهجرى) عالم شاعر كاتب مؤرخ مجاهد مصلح متعدد نواحى العظمة والعبقرية ، أدركته فى السنوات العشرين من أخريات حياته ، واتصلت به عن طريق مؤلفاته ومقالاته التى كان ينشرها فى مجلة « الفتح » القاهرية لصاحبها الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب ، ثم اتصلت بالأمير شكيب رحمه الله شخصيا ، منذ سمح له بزيارة بلاده العربية والإسلامية ، فاجتمعت به فى القاهرة ، ثم فى بيروت فى أيامه الأخيرة ، وكلما امتدت المعرفة به والإصغاء إليه والقراءة له ، ازددت إيمانا بعظمته ونبوغه وعلمه الواسع الغزير ، وصادق غيرته على الإسلام والمسلمين .

ومع أنه قد مضى على وفاته ما يقرب من أربعة عشر عاما ، ومع أنه كان فى حياته رحمه الله لسان العرب المبين ، وكاتب الشرق الأكبر ، وعلم الإسلام الخفاق ، وسهم المسلمين المشرع فى وجه الاستعماريين وأعداء العروبة والإسلام فى كل بقعة من بقاع العرب

---

(١) حضارة الإسلام : س ١ - ع ٩ .

والمسلمين ، فإنه لم يؤلف عنه كتاب واحد يوفيه حقه من التقدير[1] وينزله مكانته الخالدة فى التاريخ ، اللهم إلا ما كان من صديقه المجاهد الأستاذ محمد على الطاهر ، الذى بادر بعد وفاة الأمير ، فجمع كل ما كتب وقيل عنه بعد وفاته فى كتاب سماه « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » فأكبر عارفو فضل الأمير هذا الوفاء من جانب الأستاذ الطاهر وشكروا له فضله وصنيعه .

بيد أن المكتبة العربية ظلت فى حاجة إلى دراسات علمية . تحلل شخصية الأمير شكيب وحياته وآثاره وآراءه وكل ما يتصل به ، حتى أخرج الدكتور سامى الدهان ، عضو مجمع اللغة العربية ، هذا الكتاب الذى نتحدث عنه[2] .

قسم الدكتور الدهان كتابه إلى ثلاثة أقسام ، تضمن كل قسم منها عدة فصول :

فالقسم الأول : تحدث عن عصره ونسبه وحياته ، وقد جاء فى

(١) كتب الدكتور أحمد الشرباصى رسالة للماجستير عن الأمير شكيب أرسلان . درس فيها نواحيه الأدبية واللغوية ، فتحدث عن شكيب الناثر ، والشاعر ، واللغوى ، والناقد ، والمؤلف . ثم أصدر كتاباً آخر عنه فى سلسلة (أعلام العرب) بعنوان : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام — عام ١٩٦٣ — تناول فيها حياة شكيب الضخمة الحافلة ، وصفاته ، وأخلاقه ، ومواقفه من القومية والإسلام ، إلى آخر ما هنالك من جوانب تميز بها الأمير .

(٢) وعنوانه (الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره) صدر عن دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .

أربعة فصول ، والقسم الثانى تحدث فيه عن شعره ونثره وثقافته ، وقد جاء فى خمسة فصول ، والقسم الثالث تحدث فيه عن آثاره ومؤلفاته ، وقد جاء فى عشرة فصول .

وأهم فصل فى هذا الكتاب مما يتعلق بحياة الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، هو إيضاح موقفه من الاتحاديين إبان ثورة العرب الكبرى ، التى قامت فى أوائل الحرب العالمية الأولى ، فقد كان هذا الموقف مجال طعن فى الأمير ممن يبغضونه وينقمون عليه مكانته وشهرته فى العالم الإسلامى ، وقد بين الدكتور الدهان فى حديثه عن الحالة السياسية والاجتماعية فى عصر الأمير شكيب الأسباب التى حملته على أن ينحاز إلى جانب الاتحاديين ، يوم لم يكونوا قد أسفروا بعد عن وجوههم المخادعة المبغضة لكل ما يتصل بالعربية والإسلام ، وفى مقدمة هذه الأسباب الشعور الإسلامى القوى ، الذى كان يوجه الأمير شكيبا فى كل ميوله وحركاته ، فقد كان يرى فى الخلافة ، يومئذ — على ضعفها وتفككها — ملاذ المسلمين الوحيد ضد الطمع الصليبى الاستعمارى ، الذى كان يستبد بالدول الغربية منذ القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين ، والذى كان يحملها على تدبير المؤامرات لتهديم كيان الخلافة ، والاستيلاء على البلاد العربية والإسلامية الخاضعة لسلطان الخلافة ، متظاهرة بالرغبة الكاذبة فى إصلاح أحوال العرب والمسلمين ، وكان شأن الأمير شكيب فى ذلك كشأن أمير الشعراء أحمد شوقى رحمه الله ، وشأن كثيرين من أعلام السياسة والأدب والفكر فى العالم الإسلامى يومئذ ، فلما كشف

الاتحاديون عن حقيقة أمرهم ، وانتهت الحرب العالمية بهزيمة تركيا واستيلاء دول الغرب على جميع أجزاء الامبراطورية العثمانية ، وقامت حركة كمال أتاتورك تناهض العرب والمسلمين ، ولم يتردد الأمير شكيب فى أن يعلن الحرب على دعاة القومية الطورانية ، وله فى ذلك صولات خالدة تكشف عن عمق إيمان الرجل وحبه للعرب ووفائه للإسلام .

لقد جلى الدكتور الدهان هذا الموقف أجلى بيان ، وكنا نتمنى أن يستشهد بمقالات الأمير التى كان ينشرها فى « الفتح » مناهضة منه للقومية الطورانية ، ويذكر المزيد من عباراتها ليكون حجة دامغة للذين يتحاملون على الأمير شكيب رحمه الله ، ويتهمونه بأنه كان مع « الترك » ضد قومه « العرب » ، ولئن كانت الأمة العربية قد قدرت موقف الأمير شكيب تمام التقدير وأصدقه ، ذاك — بما منحت الأمير فى آخر حياته من حب وإعجاب وإكبار — إن بعض الناشئين من أدعياء « التاريخ » ممن لا تفيض نفوسهم بما تفيض به نفس الأمير شكيب ، من مثل عالية ، وعقيدة قوية صافية ، إن هؤلاء ليجدون فى كتاب الدكتور الدهان الرد المقنع لمن أراد أن يعرف موقف الأمير على حقيقته .

وبعد ، فكتاب الدكتور سامى الدهان عن الأمير شكيب أرسلان أول كتاب علمى عن هذا العلم الشهير من أعلام الإسلام ، وفيه من الدقة والصدق فى التحليل — وإن خلا من تحليل كثير من آرائه

الدينية والأخلاقية وغيرهما — وفيه من الأمانة العلمية ما يجعله جديراً بأن يحتل مكانته فى مكتبة كل مسلم يعنى بتاريخ الإسلام ، والإصلاح السياسى والاجتماعى فى أوساط العرب والمسلمين فى الحقبة الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية . وقد قال الدكتور الدهان فى آخر كتابه عنه : « والله يشهد أننا ما وفرنا جهداً فى قراءة آثار الرجل ، وأننا نظرنا إليه بمقياس زمانه ، ووازناه بمعاصريه ، وقسناه على أنداده ، وحسبنا حساب ظروفه وملابساته واغترابه ، وقلقه وحيرته ، فرأينا له خيراً كثيراً ، وآثاراً نافعة وسعياً عظيماً » .

وإننا لنسجل شكرنا للدكتور الدهان ، أن وفى بعض الدين الذى يطالب به كل كاتب عربى ومسلم ، نحو أبر ابن من أبناء العروبة والإسلام ، سلخ ما يقرب من ستين عاماً من عمره — توفى الأمير شكيب رحمه الله عن نحو من خمسة وسبعين عاماً — فى الجهاد للقضايا الإسلامية والعربية ، أنصح جهاد وأبره وأكرمه .

* * *

الإمام الشهيد
حَسن البَنّا
١٩٠٦ - ١٩٤٩ م
- ١ -

حياته فى سطور :

ننقل ما جاء فى (الأعلام) للزركلى : ١٩٧/٢ عن الإمام الشهيد - رضى الله عنه وأرضاه - تحت عنوان :

الشيخ حسن البنا :

حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا ، مؤسس جمعية (الإخوان المسلمين) بمصر ، وصاحب دعوتهم ، ومنظم جماعتهم .

ولد فى المحمودية قرب الإسكندرية ، وتخرج بمدرسة دار العلوم بالقاهرة ، واشتغل بالتعليم ، فتنقل فى بعض البلدان متعرفا إلى أهلها ، مختبرا طباعهم وعادتهم ، واستقر مدرسا فى مدينة الإسماعيلية ، فاستخلص أفرادا صارحهم بما فى نفسه ، فعاهدوه على السير معه « لإعلاء كلمة الإسلام » . واختار لنفسه لقب « المرشد العام » فأقاموا بالإسماعيلية أول دار « للإخوان » وبادروا إلى إعلان

« الدعوة » بالدروس والمحاضرات والنشرات ، وانفرد هو بزيارة المدن الأخرى ، ثم كان يوجه بعض ثقاته فى رحلات ، فما عتم أن أصبح له فى كل بلد سعى إليه دار ، و « دار الإسماعيلية » مركز قيادة الدعوة . ولم يقتصر على دعوة الرجال فأنشأ فى الإسماعيلية « معهد أمهات المسلمين » لتربية البنات تربية دينية صالحة ، ونقل « مدرسا » إلى القاهرة ، فانتقل معه « المركز العام ومقر القيادة » ولقى فيها إقبالا على دعوته . وعظم أمر « الإخوان » وناهز عددهم نصف المليون ، وخشى رجال السياسة فى مصر اصطدامهم بهم ؛ فحاولوا إبعادهم عن « السياسة » فقام الشيخ يعرف الإسلام فى إحدى خطبه الكثيرة بأنه « عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، وسماحة وقوة ، وخلق ومادة ، وثقافة وقانون » .

وأنشأ بالقاهرة جريدة « الإخوان المسلمين » يومية ، فكانت منبره الكتابى إلى جانب منابره الخطابية .

وحدثت كارثة فلسطين فكانت « كتيبة » الإخوان المسلمين فيها من أنشط الكتائب المتطوعة[1] . ونودى بالهدنة ، وفى أيدى « الإخوان » سلاح دربوا على استعماله ، وادخروه للملمات ، فحدثت فى القاهرة والإسكندرية أحداث إرهابية عجزت السلطات القائمة عن معالجتها ، فلجأ رئيس الوزارة « محمود فهمى النقراشى » إلى إقفال أندية « الإخوان » ومطاردة البارزين منهم . واعتقال الكثيرين ، والتضييق

(١) طالع « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » لكامل إسماعيل الشريف ورواية « أرض الأنبياء » للدكتور نجيب الكيلانى .

على زعميهم « البنا » ، فتحولوا إلى « خلايا » سرية ، تعمل فى الخفاء . وتصدى أحدهم إلى النقراشى ، فاغتاله جهرة أمام حرسه وجنده . ولم يمض وقت طويل ، حتى قام أشخاص « مجهولون » فاعترضوا « البنا » وهو أمام مركز « جمعية الشبان المسلمين » فى القاهرة ، ليلا فأطلقوا عليه رصاصهم وفروا . ولم يجد البنا من يضمد جراحه ، فتوفى بعد ساعتين .

وكان خطيبا فياضا ، ينحو منحى الوعظ والإرشاد فى خطبه ، وتدور آيات القرآن على لسانه ، منظما ، يعمل فى هدوء ، ويبنى فى اطمئنان . له مذكرات نشرت بعد وفاته باسم « مذكرات الدعوة والداعية» وكتب فى سيرته « روح وريحان ، من حياة داع ودعوة – ط » لأحمد أنس الحجاجى .

* * *

حسن البنا فى رحاب الخلود(*)

ـ ٢ ـ

ليس للعظمة مقياس خاص ، فقد يكون العظيم عالما ، أو فاتحاً أومخترعا ، أو مربيا روحيا ، أو زعيما سياسيا ، ولكن أجدر العظماء بالخلود هم الذين يبنون الأمم ، وينشئون الأجيال ، ويغيرون مجرى التاريخ .

وحسن البنا كان أحد هؤلاء الخالدين ، بل هو - فى رأيى - أبرز الخالدين فى تاريخ الإسلام فى القرن العشرين ، ليس لأنه كان عالما أو خطيبا أو سياسيا ؛ ففى معاصريه من كانوا أكثر منه علما ، وأنصع بيانا ، وأكثر دهاء ولكن لأنه الرجل الذى بنى دعوة ، وأنشأ جيلا ، وهز تاريخ مصر الحديث خاصة ، والشرق العربى عامة ، هزا عنيفا ما تزال الأحداث تتأثر بمجراه. وحسبك أن تعلم أن مؤرخا ما لن يستطيع أن يؤرخ لمصر الحديثة ، أو لقضية فلسطين ، أو للقضية العربية عامة ، أو لقضايا العالم الإسلامى ، دون أن يترك فيه مكانا لحسن البنا ، ومهما اختلفت فيه آراء المؤرخين ، فلن يختلفوا قط فى أنه أبرز الشخصيات المصرية أو العربية أثرا فى الحوادث التى مازالت

---

(١) اللواء : ع ٧٩ تاريخ ١٩٦٣/٥/١٢ .

تتتابع منذ أكثر من ربع قرن حتى الآن .. وهذا وحده أبرز مظاهر الخلود لفقيدنا العظيم .

وإذا غمط الناس قدر هذا المصلح الكبير فى عصرنا الحاضر ، غمطوه قدره فى حياته ، وغمطوه قدره بعد استشهاده ، فذلك شأن العظماء من معاصريهم فى كل زمان ، ألم تر الشيخ محمد على عبده كان فى حياته متهماً بالكفر والزندقة من علماء الأزهر ، تجرى الشائعات حوله فى كل ناحية من نواحى شخصيته ، لتبرز للناس بصورة غير محببة إليهم ، فما انقضى على موته نحو من ثلاثين سنة حتى كان الأزهر - علماء وطلاباً - يحتفلون بذكراه ، ويمجدون علمه ونبوغه وفضله ؟ . وحسن البنا لم يمت عند كل الذين خاصموه وخاصمهم فى حياته ، بل لم تنقطع أسباب العداوة بينه وبين كثيرين من الذين وقفت دعوته فى وجوههم ، بل لا تزال الحرب قائمة بين دعوته وبين الذين لا يؤمنون بها ، وبيد أكثرهم الملك والسلطان ، والجاه والأموال ، والصحف والإذاعات ، فكيف يرجى منهم أن ينصفوه ، ولم يصلوا إلى لبانتهم من القضاء على دعوته ؟! .

ولن يضير حسن البنا أن يغمطه الناس أو ذوو النفوذ منهم قدره ، ويجحدوا فضله ، فعظماء الإسلام فى التاريخ القديم والحديث ، لا يعملون أبداً ليعرف الناس أقدارهم ، أو ليحيطوهم بالرعاية والثناء . إن الإسلام ليصوغ هؤلاء العظماء صياغة خاصة لا يعرفها التاريخ فى غيرنا من الأمم ، فهو يربيهم على الروحانية المشرقة ، والإيمان

العظيم ، لا تنفصم عراهما ، والوعى العجيب لحقائق الحياة وأسرار الوجود ، والفناء الخالص فى فكرتهم ، والتضحية البالغة فى سبيل أدائها ، والحب الإنسانى الرائع للناس ، على اختلاف نزعاتهم ، ثم هم مع ذلك كله لا يرون إلا الله ، ولا يرغبون إلا فى ثوابه ، ولا يخشون إلا من حسابه ، ولا يطلبون الزلفى إلا عنده ، ولا يرجون الأمن والكرامة إلا فى رحابه ، فلن يكون فى نفوسهم متسع لشهوة الثناء ، أو رغبة الجاه ، أو الأمل بحب من تنزلهم المطامع والأهواء إلى دركات الحقد أو الغفلة أو الشقاء . هيهات أن يبعثهم على العمل فى الحياة ما تفيض به الحياة من رغبات وشهوات ، فما هم إلا النور المرسل من السماء ليكشف عن أهل الخلود ظلماتهم ، ثم يظل فى السماء دائما وأبداً ، ولن يختلط بتراب الأرض ، إلا كما تقع أشعة الشمس على أعلى القصور وأدناها ! .

وبعد . فكيف كان حسن البنا فى واقعه الذى عاش فيه ، ثم فى عالمه الذى خلد فيه ؟ .. إن مثل هذا الرجل العظيم لن تسع الصفحات القليلة للتحدث عنه ، بل لن يكفى فى تحليل شخصيته ، وتعداد أعماله ومآثره كتاب محدود الصفحات ، ولقد كتب السيد رشيد رضا رحمه الله عن الإمام محمد عبده ثلاثة مجلدات فى تاريخ أعماله ومآثره ، فإذا أراد مؤرخ أن يؤرخ لحسن البنا على ذلك النمط ، كان الحديث عنه فى بضعة مجلدات كبار ، ولعل الدعوة الإسلامية تستطيع أن تقوم بهذا الواجب قبل أن ينقرض الجيل الذى

رافق حسن البنا فى جهاده ، وأخذ عنه مبادىء دعوته ، وعرف من دقائق حياته مالا يعرفه إلا الأفراد القلائل ، واطلع على أسرار حركته وجهاده مالم يعرف منه إلا القليل النادر . إن هذه أمانة فى عنق أصحابه وتلاميذه ، لن يطالبهم بها حسن البنا ، بل ستطالبهم بها الأجيال المسلمة الآتية التى رفع لها الإمام الشهيد اللواء ، ومهد لها الطريق ، ورفع عنها القيود والأغلال .

ولقد قدر لى أن أعرف حسن البنا فى أواخر حياته ، وأن أكون على مقربة منه فى أيام محنته الأخيرة ، ثم فى أيام استشهاده ، ثم قدر لى بعد ذلك أن أطوف فى بعض أنحاء مصر ، فى مدنها وقراها ، وفى ساحلها وداخلها ، فوالله ما رأيت إنساناً أروع فى الفداء ، وأخلص فى النصح ، وأنبل فى التربية ، وأكرم فى النفس ، وأعمق أثرا فى الإصلاح ، من حسن البنا رحمه الله ! لقد كانت كل قوى الشر فى الأرض تتحداه ! الاستعمار ، والملك والباشوات ، والأحزاب وأشباه العلماء ، والفساد والانحلال ثم جهل الجماهير بمصلحتها لقد كان كل ذلك يتحداه ويقف فى طريق إصلاحه ودعوته . ومشى كالطود لا يعبأ بالرياح ، ولا يبالى بالمعاول ، ولا يتراجع أمام العاصفة ، وإن كان ينحنى لها حتى تأخذ طريقها ، ولا ينكص على عقبه برغم كل تهديد ووعيد ، ولا يضعف إيمانه بالنصر ، وإن أظلمت الدنيا من حوله ، ولا ينهزم من المعركة مهما تكاثرت القوى وتألبت عليه ، وكان مع ذلك كله ، يتسع صدره لأعدائه ، كما يتسع لأصدقائه ،

لم يكن يكره أحدا من أعدائه كراهة حقد ، فالرجل العظيم لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلا ، ولكنما يكره من أعدائه باطلهم وفسادهم وافتراءهم وتفننهم فى الشر ، وإضرارهم بمصالح الشعب ، كما كان يكره من بعض أنصاره لجاجهم وقلة تبصرهم ، وتمردهم على الحق ، وإيذاءهم للدعوة بسلوكهم وأخلاقهم . وهو مع ذلك يقول ما قاله الرسول ﷺ وهو جريح يوم أحد : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

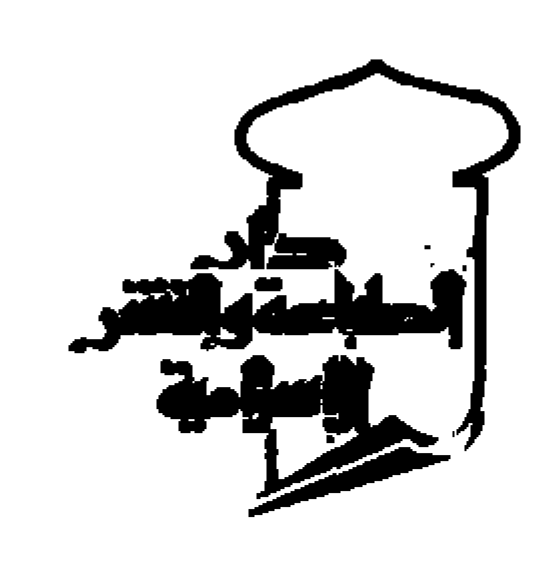
وما زال بأعدائه نصحا وإشفاقا ، وما زال أعداؤه به كيدا وتآمرا ، حتى قتلوه فى الظلام وحيدا أعزل ، مجردا من كل قوة وجاه وأنصار ! قتلوه وهم أقوياء ، وهو الضعيف ، وهم الحاكمون وهو المطارد ، وهم المسلحون وهو الأعزل ، وقتلوه وهم الأشقياء وهو السعيد ، ثم أصبحوا مطرودين من رحمة الشعب ، وهو مغمور برحمة الله ، وهم الآن مشتتون فى ديار الغربة – وهو الآن فى رحاب الخلود ! ...

رضى الله عنه وأكرم مثواه ، وأجزل مثوبته .

* * *

الفهـــرس

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧



الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ ... وبعد

أخى القارىء الحبيب :

الحياة رسالة .. والرسالة أمانة .. والأمانة مسئولٌ عنها بين يدى المولى سبحانه والكل يغدو فمعتق نفسه ابتغاء مرضاة الله أو موبقها .

ولقد اخترنا لأنفسنا طريقاً شاقة وتحمل مسئولية عظيمة .. حملناها ابتغاء مرضاة الله كغاية عظمى وهدف أسمى . فكان بفضل الله إنشاء دار اليقين للنشر والتوزيع .. وقد حملنا على عاتقنا منذ البداية مهمة نشر العلم النافع وبث الفهم الصحيح للإسلام ودعوته وسط تلك الصيحات المتعالية التى تنادى بالإسلام مبتوراً أو مُزاداً عليه ما ليس فيه أو مُشككاً في أصوله وفروعه وتحمس لذلك الكثير من الناس بحسن نية والبعض ربما بسوء نية .. وأضحى الإسلام يشكو غياب جوهره ونقاء منبعه وصفاء مورده من كثرة ما أهيل عليه من الركام بسواعد ومعاول أعدائه وبعض أبنائه .

ونحن اليوم نبشركم بخروج دار اليقين للنور نعاهد الله أولاً ثم القارىء الكريم أن لا نقدم له إلا كل نافع ثمين ونجنبه كل غث رخيص ، وياله من أمانة نسأل الله العون والمدد إنه نعم المولى ونعم النصير - آمين ،،،

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل



